حسبتك من أهلي

الطبعة الأولى
1445 هـ / 2024 م

اسم الكتـــاب: حسبتك من أهلي
المـــؤلـــف: محبوبه محمد سلامة
موضوع الكتاب: رواية
عدد الصفحات: 128 صفحة
عدد المـــلازم: 8 ملازم
مقاس الكتـاب: 14 x 21
عدد الطبعـات: الطبعة الأولى
رقـم الإيـــداع: 3202 / 2024
الترقيم الدولي: 911 - 6697 - 977 - 978

محفوظة جميع الحقوق

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار البشير للثقافة والعلوم
elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com
01152806533 - 01012355714

حسبتك من أهلي

رواية

تأليف

محبوبه محمد سلامة

دار النشر

الإهداء

« إلى كـلِّ مـن عـاد قـبل الـنهاية

وغـيَّر الـوجـهة »

ليلة الخميس
الساعة الأولى

كان الطريق في القرية مظلمًا، هكذا هي ليالي الشتاء، بعد العشاء ينام كل شيء، إلا الأحلام؛ آن أوان قيامها!

بخطوات متثاقلات.. وصل رجلٌ تعرفه من وجهه في الستين، ومن ثوبه في الثلاثين، وحقيقة أمره أنه في الرابعة والأربعين، تقدَّم حتى وصل إلى مسجدٍ كبيرٍ قد قفل العامل بابه للتوِ ووقف يُخرج مفتاحًا ليزيد على غَلقِهِ غَلقًا.

ابتدأ الرجل الحديث مباشرةً بصوتٍ قوي:

- أنا إمام المسجد الجديد، تم نقلي اليوم إلى هنا.

لم يلتفت العامل له أو يبدي أي اهتمام، سأل الرجل بحرج:

- أين سَكَنْ الإمام بقريتكم؟

هنالِك نظر له العامل بشيء من التمعن والذي انقلب لازدراء، مضت دقيقة.. دقيقة كاملة من اللاشيء ثُمَّ أجاب:

– على أطراف القرية، تعال.. فهو نفس طريقي.

بحركةٍ آليةٍ مشى العامل يتبعه الإمام.

الجو لم يكن باردًا، لكن كلُّ شيء كان يصرخ بالبرودة، أنفس العامل والطرقات، حتى ما لاقوه من دُكَّانِ الحلوى.. لم يكن في ريحِهِ أي شيء من السُكَّر!

على أطراف القريةِ كانت المدافن، تجد الزهور بأركانها والتي تستمد حياءها ونماءها من بقايا أهلها؛ فلم تأتِ من أيٍّ منها ريحًا طيبة، الطريق طويل والرفقة مملة، والهواء ثقيل..

خاب أملُ الإمام!

انطفأ شيء في عينه.. أو لعله توهَّج!

ابتسامة خفيفة ظهرت على جانب فمهِ لثانية واختفت، يتحرّك مرافقه بملل، والإمام يسير في صمتٍ هادئ، حتى خطواته بلا حياة.. كأنَّما يحاول أن لا يترك في الأرضِ أثرًا، لاحظ العامل ذلك فجأة وهو الذي لا يرى في الاهتمام حاجة!

هَمَّ بأن يُلقِي كَلِمَة متعجبة لكن صوت صراخٍ كان يندفع من أحد الجوانب، ومجموعة رجال يجلس بعضهم ويقف

البعض الآخر، قد اجتمعوا على رأسِ شابٍ، أحدهم يصفعه والآخر يجذبه من شعرهِ..

هذه الهِمَّة من سوء استرعَت انتباه رفيقي الطريق؛ فأقبلا دونما اتفاق حيث اللمَّةَ الصارخة، تلقّف الإمامُ الشابَ بين يديه تلقّفًا يوحي بالقوة، أحاطه بذراعهِ وهو يستفهم باستنكار:

- كلكم على واحد! فهل يستحق هذا الواحد؟!

صرخ أقربهم منه مكانًا:

- بل يستحق كسر رقبتهِ، ولو كان الدين يحكم بيننا يا عم الشيخ لقُطِعَت يده.

هاهُنا ظهر الفهم على وجه الإمام بعد الجملة الأخيرة، فهتف:

- ما سرقته؟

أجاب أحدهم سريعًا بغضب:

- يسرق البيض من عشَّة «أم شيماء» التي تربِّي أيتامًا، ولا تصرف على بيتها إلا بالمال الذي يأتي من بيع البيض.....

ظلَّ الرجل يحكي ما يستوجب العبرة ويستجلب الأسى في النفس، يضيف البعض كلمة أو جملة، فيزداد السامع ألمًا

والحاضر قهرًا، يختبئ الشاب السارق في جسد الإمام أكثر وأكثر، تنظر في عينهِ؛ فتعلَم يقينه أن يد الغريب الذي عرفه في هذه الساعة ستكون أهوَن من يد هؤلاء القوم من حوله، والذين يعرفونه معرفة السنوات!

لم يكن الحديث الذي يدور يشبه حديثًا من أحاديث القلوب التي تسمعها بين جمعٍ من الناس؛ فتشعر أن صاحبها قد جلس بجانبك يتحدث إليك كما يتحدث الجليس إلى جليسه لينفض عنه بذور الشك والريبة في شأن، ويملأ صدره بنبتات الثقة والأمان في شأن، أو لعله يعرفه على صورةِ مأخذ من مآخذ الحياة التي تفضي بسامعها إلى غرضٍ من أغراض نفسهِ؛ فتمسح عنه كربة من كُرب روحه، أو تساعد في الإفصاح عن معنى من المعاني الدقيقة التي تعتلج الصدر فتدكَّه دكًّا موجعًا مكتومًا!

كان الكلام يندفع اندفاعًا مشوبًا بالكره، مخلوطًا بسواده، لا يذر شيئًا من خيرٍ إلا ويطمسه وينبذه؛ فظهر أخيرًا أن الفتى شريرًا سارقًا، تعمَّد أن يسلب «أم شيماء» أمنها ومصدر رزقها!

الفتى صامتٌ لا رجاء منه، والناس سكوت لا رحمة فيهم، والعامل ينقل بصره بين السارق والإمام، يريد أن يسأل عن

الجُرم.. ما عقابه؟ لكن استوقفته نظرات العيون من حوله، تطعن جسد الشاب وتفتت عظامه، تنزع ستره المُسدَل عليه في يد الإمام التي ما زالت تطوّقه، كان الأخير يطيل النظر إلى الأرض وكأنَّما ينتظر شيئًا لا يعلمه أحد، أو لعلَّه نسيَ الحال الذي يجلس فيه والقوم الذين يجلسون عنده، هزّه العامل في كتفهِ هزةً عنيفة تفضح مكانته في صدره وتظهرها عيانًا.

التفت الإمام إليه مفزوعًا وهبَّ واقفًا بمكانه.. ولربما كان الفزع أكبر مما تحتمله الهزَّةَ، ولكنها كانت كافية لينتبه الحضور له؛ فيرفعون إليه أعناقهم، ويُنكِس السارق رأسه أكثر وأكثر.

صمت الإمام صمتًا غريبًا، كأنَّما لا يعرف ما عليه أن يقوم به، يستفهِم العيون.. لكن العيون ذاتها تستفهمه!

اعتدل اعتدالًا لا يوحي بالثقة، وفتح فمه فتحًا لا ينبئ عن أي خطابة، يبتلع شيئًا في حلقهِ، قد تكون كرامته التي يهدرها الناس الآن بين أقدامهم، يستقبحون منه تواضع موقفه وضعفه، هُنالِك أضاءت عينه إضاءة المستنير الذي وجد في آخر النفق حياة، وقال:

– يومًا ما وقفت فتاة صغيرة.. بل كبيرة، لا لا.. أقصد طالبة جامعية تسأل عالمة من علماء الآثار عن أول علامة اكتشفها الإنسان وكانت دليلًا على وجود أي حضارة.

وجوه الناس من حوله تحمل عدم الفهم بنسبة كبيرة، حتى أعناقهم التي كانت مرفوعةً مترقبةً ما يُقال فيهم.. بدأت ترتد لموضعها شيئًا فشيئًا!

أكمل بنفس الجمود، لكنه هذه المرة أغلَق عينه حتى لا يرى ما هو كائنٌ فيهم من تعجبٍ واحتقار:

– توقعت الطالبة أن العالمة ستخبرها عن أدوات الطعام مثلًا التي وجدوها أثناء الحفر؛ فدلتهم على بدء الحضارة، الكراسي والموائد...

كان يستطرد دون أن يعرف حال الناس من حوله، ولعله توهَّم أنهم ينصتون إليه باهتمام أكثر، فبدأ يحرّك يده بشغفٍ واضح ويشرح:

– لكن العالمة أجابت أن أول علامة من علامات الحضارة في الثقافات القديمة هو إثبات وجود شخص قد حدث له كسر في عظم الفخذ.. وشُفيَ منه!

ما زالت الأعناق على حالتها المتأخرة، تميل لأسفل، أما الشاب فقد ارتفعت رأسه تجاه الإمام بنظرةٍ متسائلة، فلمَّا وجده مغلقًا عينه، نادى فيه:

- وما معنى هذا؟!

فتح الإمام عينه ليكتشف أن سائله هو السارق، وأن الحاضرين كلهم من حوله قد ملأ وجوههم غيظ السؤال وبغض السائل!

طار قلب الإمام فرحًا بالسؤال وتلهفًا لإجابته؛ فقعد بمكانه والتفت بجسده كله تجاه الشاب وهتف بحماسٍ:

- في عالم الحيوان، والذي كان يعيش الإنسان به كذلك مختبئًا خائفًا.. إذا كُسِرَت ساقك؛ تموت!

امتلأ وجه الشاب استنكارًا، وبدأ الناس ينصتون إلى الحديث انصاتًا متشككًا، كأنه إقبال وإدبارٌ في آن واحد، يريد الإنسان سماع الشيء وفكّ أسراره، كذلك لا يريد أن يبدو لحوحًا حريصًا على السماع!

أكمل الإمام:

- ساقك مكسورة.. يعني أنَّكَ لا تستطيع الهروب من الخطر، مرميٌّ أنت على الأرض، تزحف على بطنك لتجرَّ نفسك خلف أي شجرة وتختبئ وراءها، وفي عالم الحيوان.. أنت أبطأ كائن فيه، لذا بساقك المكسورة هذه تكون طعامًا طازجًا مشبعًا لأول حيوان يمرّ عليك أو يشم رائحتك.

هُنالِك صاح العامل متعجبًا:

- أين الحضارة التي اكتشفوها إذًا يا رجُل؟

ابتسم الإمام ابتسامةً راضية وهو يرى الناس وقد تبعوا عامل المسجد في اهتمامه بعدما سأل سؤاله؛ فأجاب وقد بدا هدوء صوته بعد كثير اضطراب:

- كُسِرَت يدك؛ أكلتك الحيوانات، لكن الغريب أن العالمة قالت أنهم وجدوا هيكلًا عظميًا لإنسان قد كُسِرَت قدمه والتحم العظم ثانية.. معنى ذلك أن هذا الشخص ظل حيًّا فترة كافية ليلتحم العظم ويعود مكانه.

سأل أحد الرجال بتعجبٍ:

- وما الغريب في ذلك؟!

أجابه الإمام:

- الغريب هو دلالة أن يبقى شخصٌ حيًّا طوال هذه الفترة وهو مصاب.. يعني أن أحدهم كان يعاونه ويساعده، يقوم على رعايته وإطعامه، والحرص على بقائه بمكان آمن لحين تمام شفائه.

قال الإمام آخر جملة له وسكت وهو ينظر للحضورِ بعينٍ متفحصة، ينقل نظره بينهم بشيء من التفاخر بفهمه والشماتة بجهلهم!

هزه العامل في كتفه ثانيةً ليحثه على التكملة، لكن الإمام لم ينتفض هذه المرة، تلقى الهزَّة بثباتٍ، فتنحنح وقال باعتدال كأنه آلة:

- مساعدة شخص ما في مواجهة الصعوبات.. هي نقطة انطلاق أي حضارة، فمجتمع مترابط.. يعني أنه مجتمع متحضِّر.

بنظرة متهكِّمةٍ همس السارق:

- مساعدة! أتمزح يا شيخ؟! عن أيّ مساعدة تتحدَّث؟!

عندنا أشخاص لو استطاعوا أن يبلغوا عنك بوليس الكلمات كلَّما شتمت؛ لفعلوا!!

بدا لو أن الإمام يحاول التخلُّص من هذا الحوار الذي دخله، فقام ينفض ملابسه وهو يغمغم:

- صحيح.. صحيح.

لكن الشاب تعلَّق به لَمَّا رأى الجمع من حولهِ يهمُّون عليه همَّة غضب؛ فأمسك ملابس الإمام وهتف:

- ألا تشرح ما عندك بطريقة أسهل؟!

أزاح الإمام يد الشاب عنه مُتجاهلًا كلماته، لكن نظرة عينه التي امتلأت رُعبًا فرجاءً عطَّلته عن الاستمرارِ فيما يفعل، فغلبه ما يغلب النفس حال جبروتها، إذ أن رجاءات المساكين قد تقهر القسوة أحيانًا!

عاد لمجلسه يضم الشاب إلى جناحهِ ضمًّا خفيفًا، كأنَّه قربٌ غير مقصودٍ منه، شيءٌ في عينه كان يبرق بغضبٍ وحزم، تنفَّس بقوة وسأل العامل بجانبه:

- ما الذي سرقه؟

فجاءت الإجابة صارخة من أحد الحضور:

- قلنا سرق بيض «أم شيماء» التي...

أسكته الإمام بحركة من يده يهدئه بها ويقول:

- تذكرتُ، «أم شيماء» التي تربي أيتامًا، ولا يكفي ثمن بيع البيض مصاريف أولادها فتقضي باقي أيام شهرها في جوعٍ، ثُمَّ جاء هذا الغبي السارق ليسرق البيض الذي لا يكفي ثمنه أصلًا مصاريف المرأة ومن معها، هل أخطأتُ في أي تفصيلة؟!

نظر الحضور لبعضهم بارتياح، إيماءات رؤوسهم تؤكد قبولهم عن سرد الإمام للقصة البائسة كما ترتضيها نفوسهم، فقال الأخير:

- هذا ما صنعه السارق، فأين الذي صنعتموه؟

ضحكوا استهزاءً وقال كبيرهم:

- هو السارق ونحن الشهود يا مولانا.

فقال الإمام بثقة واستنكار:

- كيف تنسون دوركم العظيم، وموقفكم المدهش، ودعمكم الجبار في حياة «أم شيماء»؟! برأيي أن الفتى السارق

يستحق قطع يده حقًا، نفعلها.. والآن، وأنتم من سينفذون الحكم لأن هذا حقكم لدفاعكم عن «أم شيماء».

فزع الشاب وارتبك، ينتظر البعض رد البعض، ويتخفَّى البعض وراء البعض، العامل ينظر ترقبًا، والإمام.. مبتسم!

أكمل:

- لا بأس، لا حاجة لسرد جميل فعالكم، فالكريم لا يحكي إحسانه أبدًا.

هتف الشاب معترضًا:

- أي كريم وأي إحسان؟! أهل البلد هنا لا يفهمون الإحسان ولو شربوه مع اللبن في الصباح!

ضربه أحدهم في قدمه؛ فأخرسته الضربة، قاطع الإمام صوت التناطح الذي نبت فجأة في صدور الحاضرين:

- لا أحد متهم هنا، كلكم أهل، ولا بد أن دوركم في حياة «أم شيماء» كبير، حتى تغضبوا على هذا الشاب بتلك الشدة لأجلها، كنتُ أحكي لكم قصة قديمة عن عظمة مكسورة وشُفيَت، كذلك حال المرأة التي لا يكفيها المال، وحدها في

عالمنا هذا ستموت، فكيف نكتفي بأن ندافع عن بيتها المنهار من السرقة مثلًا، والبيت نفسه قائم على الهواء؟! ألا نقيم البيت أولًا ثُمَّ نحميه؟!

كانت الأفكار تتضارب في رؤوس الناس، أحدهم يهمس في نفسه..

«مالنا وأم شيماء!»

والآخر.. « كنا بخيرٍ.. حتى مر هذا الشيخ، ليته ما مر»

وثالث.. «لا شيء يدعو الإنسان للسرقة مهما كان»

ورابع.. «ما دخلنا والعظام؟! نعاقب الشاب وبعدها نسمع القصص»

تفلَّتت كلمة من أحد الحضور لم يسمعها أحد غير الشاب فصرخ:

- أنا سمعتك.. سمعتك، أعد ما قلت.. أرجوك أعده.

امتلأ الرجل خجلًا والعيون كلها تتبعه، لكن نظرة مشجعة من عين الإمام كانت كافية أن تدفعه لإعادة ما قاله:

- لم أرَ هذا الشاب يسرق من قبل، وأعتقد أنه كان يبيع

الذرة المشوية على باب مسجد القرية من شهرين تقريبًا.

فعلَّق الإمام على ما قيل:

- إذًا هي المرة الأولى!

صاح واحد:

- ربنا لا يكشف ستر إنسان من مرةٍ أولى.

فغضب الإمام:

- ومن قال هذا؟ تريد إثبات فساده وفقط!

الفتى يتعلَّق بأملٍ وأنت تدهسه.

ثم أشار بيده للجميع وهو يهتف:

- كلكم تدهسونه!

يحاول أن يجد مخرجًا أمامكم من سرقته، والحقيقة أنكم من يفترض أن يسعى للحصول على مخرج أمامه، فالعقاب لا ينزل على المسيء وحده.. بل يجب أن يمتد لمن خلق الظروف التي أدت به لهذه الإساءة، فهل أنتم جاهزون للمحاكمة أيضًا؟!

ابتسم الشاب ابتسامة تشبه النصر، فضربه الإمام على رأسه

ضربة نبهته واعتدل، فوجَّه له حديثه:

- أتحسب أنَّك نجوت؟ مأساتك لم تبدأ بعد أيها الغبي، لي صديق يعمل طبيب عظام.. يومًا قال لي أنه سيقطع قدم رجل كبير قصته محزنة جدًا، حيث أنَّ هذا الرجل حينما ذهب للصلاة بالمسجد، قام أحدهم بسرقة حذائه، فاضطر الرجل للسيرِ حافيًا حتى بيته، وفي أثناء ذلك دخل مسمار كبير بقدمه، فأخرجه وعاد للبيت، وفي صباح اليوم التالي تورمت قدمه واسودت، ولما كشف عليها كانت المفاجأة أن الجرح تلوث، وقد وصل الأذى للعظام مباشرة، ولم يعد هناك حل غير قطع هذا الجزء من القدم، كل هذا والسارق يظن نفسه فقط سرق حذاء!

حذاءً كلف صاحبه قدمه، فهل لازلتَ ترى أنَّها بسيطة لأنها سرقتك الأولى، أو لأنَّك فقط سرقت بيضًا؟!

سكت الناس تأدبًا.. أو خجلًا، لكن الإمام لم يسكت:

- وأنتم! عجيبة وقفتكم ضد ظلم «أم شيماء»، وأنتم أول من يظلمها!

امرأة تصرف على بيتها من بيع البيض!

وأنتم تدافعون عن هذا البيض!

فأين أنتم منها أولًا؟

أم أنها فقط موجودة لنتحدث بلسانها ونقيم الحرب على هذا الشاب لأنه فقط أخذ منها مورد رزقها، والذي لا يعد موردًا أصلًا، لكنكم في الحقيقة كنتم تنامون الليل، ترتاح قلوبكم لعلمكم أن هناك بيض في عشة «أم شيماء»، إذًا لا خوف عليها ولا قلق، فجاء السارق، فعرَّى بيت المرأة من الستر، وأظهر أن قلوبكم بلا رحمة!

انتهى من كلماته ثُمَّ قام من مكانه وأخذ الشاب في يده يجرُّه إليه، وترك الناس من خلفه يتبادلون الاتهام!

قام عامل المسجد من مكانه ليلحقه، فتشبَّث به رجلًا وسأله:

- من أين أتيت بهذا الشيخ؟!

فدفع العامل يد الرجل عن كتفه بغضب وهتف:

- لم أفعل، تفاجأت مثلك أنه جاء ليصلي بالناس في المسجد الكبير، والليلة أول ليلة له.

- لكني لا أرتاح إليه!

- ولا أنا، فلم أرَ من قبل شيخًا يصلي بالناس ويخطب فيهم دون أن يتكلم بآية واحدة من القرآن، أو حتى حديث عن الرسول صلى الله عليه وسلم!

انتهى من كلمته ثُمَّ أسرع الخطى ليلحق بالإمام والشاب في يده، والذي لا يعرف إلى أين سيأخذه!

كانت خطوات الثلاثة مختلفة جدًا، الإمام يمشي ببطء لجهله بالطريق، والشاب يمشي بحذر متلهفًا لأي فرصةٍ حتى يهرب، والعامل يُسرِع إليهم ليفهم ما ينويه ذاك الإمام.

كثيرًا ما يضمر الإنسان في نفسهِ أمرًا وهو لا يشعر به، وكثيرًا ما تشتمل نفسه على عقيدة وهو لا يحس باشتمال نفسهِ عليها، وفي كل أحوالهِ لا يعتب عليه عاتب، ولا يرهقه بملومته لائم، هو فقط يدفن في نفسه ويخبئ بها ما استطاع أن يخبئه دون أن يشعر به أحد.

هكذا بدت نفوس ذلك الجمع الذي بدأ ينفض بعد ذهاب الثلاثة منه، يتوجَّه كل منهم بطريق، إلا واحد ذهب في طريق مظلم، حيث يستقر بنهايتهِ حائط موصولٌ به أفرع من النخل

تصنع سقفًا، وبعض الأقمشة التي تربط تلك الفروع، ومن خيالات النار المشتعلة بالداخل.. تعرف رائحة الجوع!

نادى ثلاثًا.. «يا أم شيماء».

خرجَت أخيرًا وقد أخفَت وجهها وجسدها بحجابٍ كبيرٍ يلفّها من أسفلها لأعلاها، تسأله ماذا يريد، فقال:

- نحن أمسكنا السارق يا خالة، وكان قد باع البيض وهذا هو المال الذي باعه به.

قالها وقدَّم إليها ثلاث ورقات فئة المائة جنيه، فنقلَت المرأة نظرها بين الرجل والمال وهتفت:

- باع البيض بكل هذا؟!

أحسَّ الرجل بالعجب منها والخجل من نفسه وهي تمسك المال وتضمُه لصدرها وتهمس.. «يا رب أنت الكريم يا رب، أنت الكريم»

وقف الرجل أمام هذا المشهد وقفة صامتة ينظر إليها دون الهمس بحرف، لكن لو أن عينه اتصلت بلسانٍ ناطقٍ وفمٍ لتحدثت عمَّا وراءها من لواعج الأحزان وأفانين الأشجان!

يسألها أخيرًا بحيرة:

- ألا تبيعين غير البيض؟

قالت بأسًى يتبعه رضا:

- كان عندي عشر فرخات، وأبيع البيض بالأسبوع، لكن مات ثلاثة هذا الأسبوع بسبب البرد.

رفع الرجل رأسه ينظر للبيت القائم على جذوع النخل، ازدادت نفسه حسرة، لكن «أم شيماء» قطعت أفكاره لتسأله بصوتٍ خافت وهي تضع طرف حجابها على فمها دلالة خجلها وتتحرَّج أكثر وأكثر:

- هل يمكنني تسوية الفراخ الميتة للأطفال؟

كان السؤال مؤلمًا، والفزع الذي ارتسم على وجه الرجل زاد الموقف ألمًا، فاعتذرت المرأة سريعًا وهي تهتف:

- والله ما قصدتُ أذيتهم.. أنا أسأل لأني لا أعلم هل سيحاسبني الله على ذلك أم أنه ممكن أن أفعله!

كان صوت تبريرها للرجل عن سبب سؤالها يقطع في قلبه ويفتّه فتًّا، ولما أدركت ذلك؛ حاولت الرحيل من أمامهِ لكن صوتًا مقبلاً باتجاههم أوقفها عن الحركة والقادم يسأل:

- هل هنا بيت «أم شيماء»؟

تماسك الرجل وهو يجيب الغريب:

- نعم هنا، تعال.

فأقبل الأخير، والمرأة تلملم حجابها عليها أكثر فأكثر، تنظر للرجل الأول وتفكر كيف ستصلح ما أفسدته في نفسهِ بسبب سؤالها، ثُمَّ تعود فتطرح داخل عقلها استفهامًا مُلحًا.. « ما الذي أتى بالرجلين على أي حال؟!»

دقيقة وبدأ الغريب الكلام قائلًا:

- نصيبك يا «أم شيماء» أننا أمسكنا السارق الحمد لله.

يقول هذا ثُمَّ يخرج من جيبه ورقة بمائتي جنيها ويقدمها لها وهو يحكي ضاحكًا:

- لكنه كان قد باع البيض وهذا الثمن الذي باعه به.

تنقل «أم شيماء» بصرها بين الرجلين، وتبدأ عيونها تصرخ بالماء وقد فهِمَت ما يصنعونه، أما الرجل الأول فقد ابتسم في خجلٍ وهو يحدّث الغريب من بين أسنانه:

- ما الذي أتى بك الآن يا رجل.. قد فعلتُ مثل ما فعلت!

تنحنح الغريب معتذرًا ومحاولًا أن يجد مخرجًا:

- الحقيقة يا خالة أن «شيماء» الصغيرة وإخوتها كانوا قد مروا عليَّ بالأمسِ وأقنعتني بشراء البيض من عندكم...

لكن المرأة قاطعته وهي تهمس بحروف مرتبكات:

- أنا شيماء ولم أمرّ عليك بالأمس لا أنا ولا إخوتي!

صُدِمَ الرجلان وهما يسمعانها، سأل أحدهم بتوترٍ:

- أنتِ شيماء! فأين أمكِ إذًا؟

- لم يكن هناك «أم شيماء» أصلًا، أنا فقط مع إخوتي من البداية، منذ أن ماتت أمي من عامين.

كان الموقف ثقيلًا على الرجلين، والذي كمل بقدوم شخصٍ ثالث يقف عندهما ويفعل ما فعله الأول والثاني، فيصدمانه بحقيقة أن المرأة هي مجرد فتاة صغيرة تختفي خلف حجاب يخبئ أغلب وجهها، وقد أحرقت الأيام طفولتها، وبددت سعادتها، وصنعت من براءة أحلامها حذاءً!

خرج صغيران من زاوية العشَّة يجرُّان الفتاة جرًا للداخل وهما يسألانها تجهيز الطعام وأحدهم يقول:

- لقد نضجَت الفرخة يا أختي.

هاهُنا شهق الرجل الأول شهقةً كادت تأخذ روحه فيها وهو ينظر للفتاةِ برعبٍ، والأخيرة تمتلئ عيونها دموعًا مما أكَّد ظن الرجل، فهتفت:

- والله يا عم لم أكن أعلم أنه لا يحق لي أن أفعل.. والله لم أكن أعلم.

قالتها وانهارت أرضًا تكمل بكاءها، وإخوتها من حولها ينظرون لها نظر العاجز الجاهل، فلا هم يعرفون سبب البكاء، ولا يدرون كيف يوقفونه!

كان الرجال الثلاثة في حيرة من أمرهم، وخزي من حالهم، تلفَّت بعضهم لبعض وقد تعاهدوا أن لا تمر عليهم الليلة إلا وقد غيَّروا من هذا الواقع البائس ما استطاعوا....

أما الإمام والسارق والعامل، فقد سارت بهم خطواتهم حتى البيت الذي يسكن فيه كل أئمة المسجد الكبير، وقف العامل يبحث عن نسخة مفتاح البيت، في الوقت الذي نظر الشاب للإمام نظرة فاحصة وهو يسأله:

- ماذا تريد مني؟ ولماذا ساعدتني؟

ابتسم له الإمام وهو ينحني حنى يصل إلى أذنه ويهمس:

- لا تقلق، سأطلب منك رد الجميل قريبًا جدًا.

قالها وعاد بجسده للخلف وابتسامته تـزداد اتساعًا، والشاب يزداد قلقًا!

- أخيرًا!!

قالها العامل بفرحةٍ وفزعةٍ وهو يجد المفتاح أخيرًا ويتقدَّم من باب البيت ليفتحه به، تتساقط خيوط العنكبوت وتنهار الأتربة العالقة بالباب، لكن لا شيء سيء حتى الآن، الأثاث وحالة المكان جيدة، هكذا كان الإمام يفكر وهو يتحرَّك داخل البيت والعامل من خلفه، أما الشاب فكان قد اختفى بعد جملة الإمام الأخيرة!

يقول العامل:

- لم يأتِ أحد إلى هنا منذ ستة أشهر.

سأل الإمام باهتمام:

- وهل هذا طبيعي؟!

- لا، لكن الأمر متعلِّق بالشيخ الذي يرسلونه ليمسك المسجد.

- وأين كان يمكث الإمام السابق خلال الستة شهور التي لم يدخل أحدٌ فيهم إلى هنا؟!

- لم يكن هناك أي إمام في هذه الفترة، كلَّما جاءنا واحد لم يستطع تحمُّل القرية وأسلوب أهلها؛ فلا يمر يومًا حتى يسعى لطلب نقله من هنا بأسرع وقت.

وقف الإمام منتبهًا وقال:

- ما باله أسلوب أهل القرية؟ ماذا فيه ليهرب منه شيخ المسجد؟!

الناس هم الناس في كل مكان، فما الجديد فيهم؟!

رفع العامل عينه إليه في مكرٍ وتشفٍّ وقال:

- لا شيء يا شيخ، لا شيء.

قالها وهو يعود بظهرهِ للخلف حتى يصل لعتبة الباب، فيلتفّ مبتعدًا بعدما أغلق الباب وراءه، وهو يعلم أن الإمام لن يحتمل ويستمر، والآخر في الداخل يدرك الآن أن لا بديل عن هذا المكان مهما حاول، لأنه فرصته الأولى والوحيدة في النجاة!

***

الساعة الثانية

صوت طرق شديد على باب البيت أيقظ الإمام من نومه؛ فهبَّ مفزوعًا ثُمَّ مشى على أطراف أصابعه بسرعةٍ مدروسة، وقف خلف نافذة قريبة من الباب ونظر من فتحةٍ فيها دون أن يحركها، مرت ثوانٍ وهو ينقل بصره بكل الاتجاهات، وفي النهاية أخذ نفسًا طويلًا وذهب ليفتح، يميل برأسه لأسفل قليلًا، يضع يدًا على خاصرته والأخرى يمسك بها الباب ويسأل بصوتٍ لم يشبع من النوم بعد:

- ماذا تريدين يا صغيرة؟!

وكم الساعة الآن؟

حافيةً، تلفُّ حجابها على رأسها وجسدها، تخبئ طفولتها في سواد سِترها، فصار سَترها كله طفلًا!

طرف الحجاب في فمها كأنها تمسكه منه، أو هذه هي من العادات هنا.. لا يدري!!

لكنها حركة مزعجة على أي حال.

كانت قدماها متقاربتين من بعضهما في وقفتها، فحرَّكت قدمها اليمنى قليلًا حتى وصلَت لقدمها اليسرى، وضغطت عليها بقوة، فكأن أظافر الأولى تغرس في الثانية!

تكلَّمَت بسرعةٍ وخجل:

- العصر أذن، قالوا أنَّك شيخ الجامع، ومن لديه سؤال.. يسألك أنت.

- من الذي قال؟

- الناس.

- وهل تصدقين دومًا كلام الناس؟!

رفعَت رأسها إليه وقد تحوَّلت نظراتها من ترقبٍ لخوف، لم ترد، فأكمل الإمام بتململٍ:

- ما سؤالك يا بنت؟

وقبل أن تهم بإجابته كانت يده تسبق إلى طرف الحجاب الذي تضعه بين أسنانها، جذبه سريعًا؛ فتألمت، لم يهتم بآهة الوجع التي خرجت منها، نظر إلى رأسها برضا وقال:

- حجابكِ كما هو على رأسكِ لم أمسسه، أنا فقط أريد سماعك جيدًا، وطرف القماشة بين أسنانك يزعجني وسيمنعني من الفهم، الآن اسألي سؤالك.

امتلأت عيونها بالدموع، لم يهتم لذلك وسأل:

- ما اسمك؟

همست:

- شيماء.

فصدَرَت منه نبرة فهمٍ وهتف:

- أنتِ ابنة «أم شيماء» بائعة البيض التي سمعتُ عنها وتعيش قريبًا من هنا!

اعتدلَت الفتاة وهتفت بقوة:

- «أم شيماء» لم تكن يومًا بائعة بيض، بل كانت معلِّمة قراءة وكتابة.

انتبه لنبرة الثقة في صوتها، أما دفاعها فكان فيه بعض شراسة لم تكن بحاجةٍ إليها لولا أنَّها اعتادتها، كل هذا اعتمل

برأسهِ وهو ينظر إليها، فابتسم وأشار بيده إليها دلالة طلبه أن تُكمِل، فهدأ صوتها قليلًا وقالت:

- أردتُ سؤالك عن شيء، لكن عليك أن تُقسم بـ «ربُّنا الجبَّار» أن لا تخبر أحدًا.

ابتسم وقال بتهكم:

- تقصدين «والله العظيم»!

فقالت باعتراضٍ:

- «ربُّنا الجبَّار» أو لن أسأل.

من جديد تعجَّب من نبرتها، لكنه حرَّك رأسه موافقًا، ثُمَّ بدا أنَّ شيئًا هبَّ إلى ذهنهِ فسأل:

- وهل تعلمين معنى الجبَّار؟! لأنَّه ليس بمعنى المتجبِّر المنتقم يا بنت.

حرَّكت رأسها دلالة علمها قائلة:

- ربُنا الجبَّار.. جابر القلب والسقف والبيض.

ضحك بقوة متفاجئًا من ردها، لكن مظهرها الهادئ العاتب

عليه أسكته وأشعره بالحرج من نفسهِ، ففتح الباب كله وخرج من الدار، تحرَّكت الفتاة من أمامه توسِّع له الطريق، مشى حتى وقف على عتبة البيت من الخارج وجلس، وقفت دقيقة كاملة تنظر إليه ثُمَّ قررت مستسلمةً أن تتبعه، أقبلت حيث هو فرفع رأسه إليها ثُمَّ تحرَّك قليلًا بجسده ليسمح لها؛ فقعدت على الأرضِ قريبًا منه، أحسَّ في جلستها مهانةً لها فنهاها:

- لا، اصعدي هنا معي على الجهة الأخرى، المكان كبير.

اعترَضت بيقينٍ شديد جدًا:

- من جبَر الله حاله؛ لم يهمه أين سيجلس يا عم الشيخ.

ابتسم باستغرابٍ وسألها:

- كم عمرك يا بنت؟

- اثنى عشر عامًا.

- وأمك معلمة القراءة والكتابة.. لماذا صارت تبيع البيض؟!

أحسَّ كأن سؤاله لم ينزل على أذنها فتسمعه، لكنما نزل على قلبها فآلمه، فأعاده بصيغةٍ أخرى:

- أين أمك يا شيماء؟

- ميتة يا عم الشيخ.

الآن فهم لماذا تتحدَّث عنها بعاطفةٍ هي الأشد، فالموت فقد العاجزين، لا يصل واحدهم للآخر، ولا يعلم بعضهم عن بعضهم شيئًا، إلا أن يأذن الله برؤيا تجمع من خبر راحلٍ ما يثبِّت المولى به الفؤاد ويربط عليه، سألها:

- لكِ إخوة يا شيماء؟

- اثنان، خمس وست سنوات، وأمي ماتت من عامين.

- ومن يصرف عليكم؟

- أنا.. من بيع البيض.

- وكم سعر البيضة اليوم؟

- كسعر الأمس، العشر بيضات بثمن كيلو عدس.

نظر الإمام إليها، لم تكن الفتاة تحاول إخفاء وجهها ولا جسدها من قبل، لكنها تسعى للتشبه بالكبار، لأنها صارت من الكبار.. شاءت أم أبت، هي منهم!

مال تجاهها بجسده وقال مازحًا:

- «وربنا الجبَّار» لأنتِ أعسَل بائعة بيض رأيتها في الدنيا.

شهقت بفزع واحمر وجهها خجلًا، فانتبه لملامحها أكثر وهتف:

- عندك غمَّازة واحدة بوخدَّكِ يا شيماء!

مدَت «شيماء» يدها تتحسس وجنتيها، قالت بطفولة وفخرٍ:

- في هذا أُشبه أمي رحمها الله، لكن وجهها هي كان به غمَّازتان.

وجد أخيرًا ما يحمسها، فقال بثقة:

- أنتِ جميلة إذًا كأمكِ!

- لا، بل هي كانت أجمل.

- إذًا أنتِ ستكونين.

- و«ربُّنا الجبَّار» ستبقى هي الأحلى دائمًا.

- ما قصة هذا القسَم يا «شام»؟

قال هذا النداء وهو يتخيَّل في رأسهِ بلاد الشام، تشبهها تلك البلاد جـدًا، فكأنَّما هي وهـم.. ذات الوجع والألم،

صُدِمَت الفتاة من النداء أول ما قاله، لكن اتسعَت ابتسامتها له وأحجَمَت أن تعترض عليه، أغمضت عينها وأسندت ظهرها للحائط وأجابت:

- «ربُّنا الجبَّار، جابر القلب والسقف والبيض».. هكذا علمتني أمي، في العام الذي ماتت فيه كان أبي قد كسر قلبها بسفره، ظلَّت تبكي ليالٍ طويلة حتى كان النوم هو فرصة عينها الوحيدة للراحة، ثُمَّ سقط سقف بيتنا في عاصفة شديدة؛ فبدأنا نضع مكانه أجزاء من نخل أرض «الأسيوطي» ونربطها ببعضها بملاءات الأسِرَّة، ولكن كل مرة كانت تتمزَّق الملاءات!

حتى أتى يوم واستيقظت أمي من نومها وهي سعيدة، تقول أن الله جبر وجع قلبها، وهو نفس اليوم الذي أمطرت فيه السماء ولم تسقط قطرة ماء واحدة فوق رؤوسنا، كان السقف منهارًا.. لكن الماء لم يدخل!

اعتدل الإمام وكان مُتكئًا، هتف مستنكرًا:

- تكذبين يا «شام»!

ابتسمَت لندائه، لأوَّل مرة من زمن يعاملها أحد كطفلة.. بل ويدللها!

ردَّت عليه بسعادة:

- و«ربُّنا الجبَّار» ما كذبت.

تنفَّس بضيق وغمغم:

- حسنًا، هذا القلب والسقف.. ماذا عن البيض؟!

أجابته بحماسةٍ:

- أنا التي أضفتُ البيض للدعاء، كنتُ كلَّما جمعتُ البيض.. وقع مني وانكسر، ثُمَّ فكرتُ مرةً وأنا أجمعه أن أدعو «ربُّنا الجبَّار» أن يحفظه، وتخيَّل ماذا حدث؟

سألها باهتمام:

- ماذا حدث؟

فقفزت من مكانها بمرحٍ وهتفت وهي تصفق بيديها:

- لم تنكسر ولا بيضة.

وبكلِّ تمثيل الدنيا هتف الإمام وهو يفتح فمه باندهاشٍ:

- مستحيل!

- قلتُ لك، و«ربُّنا الجبَّار» هذا ما حصل.

ظلا يضحكان كطفلين اجتمعا على دهشةٍ واحدة!

أمسك الإمام بطنه من التعب وهتف برجاء:

- يكفي يا بنت.. يكفي، معدتي آلمتني من الضحك.

سكَتت وسَكَت، مضت دقائق حتى هدأت أنفاسهما، التفت تجاهها وسأل:

- الآن أخبريني لماذا طرقتِ الباب عليَّ؟!

عادت لجلستها بالأرضِ وأجابته وهي ما زالت تمسح عنها دموع الضحك:

- بالأمسِ وقف رجلٌ أمام حائطنا وقال لصاحبٍ له «المال الحلال بركة في الأهل والأولاد.. والمال الحرام موت لهم».

- صدق الرجل.

- المال الذي أدفعه في الطعام من بيع البيض.. حرام أم حلال؟

- حلال.

- والفراخ التي تضع البيض ما دامت ملكي فبيضها حرام أم حلال؟

- حلال.

- وماذا لو لم تكن ملكي؟!

- ماذا تعنين؟

التفتت إليه وقالت بخجل مملوء بالأسى:

- كان عم «حسين» بائع الكتاكيت يعيش بجانب بيتنا، ويومًا ما انكسر صندوق الكتاكيت وهربت منه، استطاع أن يجدهم كلهم إلا خمس كتاكيت كنتُ وجدتُهم على باب البيت فأخفيتُهم، ولَمَّا سألني عنهم.. أنكرتُ أنهم عندي.

- ولماذا فعلتِ هذا يا بنت؟!

لم تستطع الكلام، فأخفَت وجهها بيديها كطفلة صغيرة حقًا.. وهي حقًا طفلة!

نظر لها بحزنٍ واضح، يعلم إجابة سؤاله لكن كان يجب أن يسألها على أي حال، مُشفِق على الحال الذي يوصل رِقَّةً كهذه أن تلقى الدنيا باكرًا وتنزل لساحاتها وهي ما زالت تتعلَّم كيف تقاوم حشرات سريرها.. لتبدأ في محاربة العالم بأسرهِ، وليست وحدها.. بل وفي عهدتها أمانتان!

دقيقة حتى استعادت شيبتها، وخلَعَت عنها رداء الطفولة المؤقت، قالت بثبات وكأنها امرأة في العشرين:

- كان عليَّ أن أجدَ شيئًا يساعدني، طفلة كنتُ لكن لم يرني أحد كطفلة، رأيت الخمس كتاكيت وأخفيتهم، وعلى غير العادة لم يمت منهم ولا واحد، وكانوا يكبرون بسرعة!

كنتُ متعجِّبة منهم، ومن الجيران، ومن إخوتي، ومن الدنيا كلها!

أخذ الله أمي، وتعامى عنَّا الجيران كأنَّهم لا يعرفون أن هنا أيتام صغار، واكتشفتُ أن إخوتي الصغار مختلفين عنِّي، فشهيتهم أعلى، وحركتهم أكثر، وسوء خلقهم.. أشد!

ملامح وجهها تزداد عمرًا، كأنَّها في الثلاثين، تُحرِّك يدها بتوترٍ كامرأة هرَبَت منها الأيام فانفرط عقد عمرها....

- كنتُ أمشي بالقريةِ وأسلِّم على الناس، فيُسلِّمون عليَّ ولا يطيلون الوقفة، أرى في أعينهم رجاءً صامتًا.. «أرجوكِ لا تطلبي شيئًا»، حسنًا لن أطلب، لكن أُمِّي قالت لي أننا يجب أن نبقى هنا، لأن القرى كل ناسها أهل، فأين الناس يا شيخ، أين الأهل؟!

رأوني مرةً أرتدي حجاب أمي؛ فنادتني امرأة يا «أم شيماء»، لم أرد عليها، لكن كأنَّما الناس كذبت كذبة ويريدون تصديقها، ومن يومها يقولون.. «أم شيماء» جاءت، «أم شيماء» ذهبت، وهم في حقيقة نفوسهم يعلمون أن «أم شيماء» ميتة، وأن ابنتها هي التي تمرُّ عليهم وبينهم، وهم لا يمرُّون.. إلا من فوقها!

عينا الإمـام لا تفارق ملامح وجهها، هذه التفاصيل الصغيرة في وجنتها وجبهتها.. كأنَّما غطاها العجَز، يبدو العمر الآن واضحًا جليًا عليها، امرأة في الأربعين قد شيَّبتها الدنيا قبل أوانها، فبات بياض الشعر أقرَب لها من الغد!

- تعاموا! تخيَّل!

ظنُّوا أنَّ كل شيء سيمر ولن يرونا ثانيةً، لكن لم أعلم إلى أين أذهب!

فأنا لا أعرف غير هذه الأرض، ولا أملك من الدنيا إلا أخَّين، وخمسة فرخات مسروقة، والكثير الكثير من الحزن.

مرَّ علينا يومًا ابن «الأسيوطي» صاحب أرض النخيل التي بجانبنا، وكان معه كرة قدم جديدة، خرج إليه إخوتي فدعاهم للعب، قذف لهم الكرة وقذفوها له مرةً ومرة حتى أنهكه اللعب

وأنهكهم، فقذف الكرة مرة أخيرة عاليًا فسقطت على سيخٍ بارزٍ من السقف المنهار فثُقِبَت الكرة!

لَمَعَت عيناها هنا وهي تتذكر، تُحرِّك كفّ يدها بحركة دائرية كأنَّما هي تمسك الكرة، تمسح عليها وتدللها، تسألها بهمس عاتبٍ.. «لماذا ارتفعتِ عاليًا؟»

– نادى الفتى والده «الأسيوطي» بنفسه، ناداه ببكاء الغنى، وبكى إخوتي بكاء الفقر، وعلا صوت الغنى على الفقرِ في النهاية، ولم يجد الأب في بيتنا ما يمكنه أن يُعوِّض به ابنه عن كرته إلا خمس بيضات كانت حصيلة فرخات اليوم، وبثمنهم ربما كنتُ سأطبخ أرزًا، أو أشتري جبنًا.. لا أدري، المهم أن اليوم انتهى وأنا وإخوتي نجلس وفي المنتصف استقرت كرة القدم في نفس موضع الطعام، ننظر لها ثلاثتنا.. بكل اشتهاء!

انتهت وهي تمسح كل الدمعات، يدها ترتعد، كأنَّما سنوات عمرها تعدل الخمسين لا أقل من ذلك ولا أكثر، في صدرها ألمٌ تظهر آهاته، وفي فمها شهقات تذهب بنفسها بين لحظةٍ وأخرى.

– تعلم يا شيخ.. ما زلتُ أتمنَّى أن أصير أمًّا، لا أنتظر خطوة الزواج والاحتفال وهذه الأمور، فقط أحلم أن أكون أمًّا،

وأعتقد أني سأحسن التربية، ففي قلبي حُبٌّ كبير لمن سيكونون منِّي، وفي عيني دموع خوف ستحاوطهم، وبين يديَّ لمسات عطفٍ وشفقة، فأنا أمٌّ تجهَّزَت لهم من زمن.

أخَذَت نفسًا كبيرًا، اعتدلَت في جلستها وتأكدت من أن حجابها مضبوطًا، ثُمَّ قالت:

– هل سيحاسبني الله عن الخمس كتاكيت يا عم الشيخ أم سيغفر لي لأني كنتُ أحتاجهم؟

ابتسم لها وفي عينيهِ نظرة حنوٍ تملأ عليه قلبه ووجهه، أجاب:

– سيغفر يا «شام»، سيغفر لأنكِ الأم المثالية من بين أمهات الأرض كلُّهن.

صفَّقت بيدها وقد ملأتها الحماسة وغلبتها رنَّة الأمل في صوتهِ، اقتربت منه وهمست في أذنه:

– الحمد لله أن عندنا شيخ مثلك يا عم الشيخ.

قالتها وعادت بظهرها إلى الخلف وهي تبتسم له، ثُمَّ تمدُّ يدها لطرفِ حجابها، فتأخذه لتضعه بين أسنانها كما اعتادت، وتعود لسيرها بطريقها الذي تعرف، أمَّا هو فقد ظل من خلفها

يتتبع سيرها.. يكاد يُقسِم أن الأرض تُنبِت شيئًا على إثرها، لا يعرفه.. لكنه يشعر به!

عاد إلى البيت وهو يحمل قصتها في صـدره، تشغله، ارتدى ملابسه وخرج إلى الطريق يسأل عن عم «حسين» بائع الكتاكيت!

يسأل كل إنسان يلقاه، فلا يزيده سؤاله إلا جهلًا!

مضى في طريقهِ كما وُصِفَ له حتى وصل لبيتٍ متواضعٍ، طرق الباب، دقيقة حتى خرَجَ إليه طفلٌ صغير يسأله ماذا يريد، فلمَّا تأكد منه أن هذا هو المكان الصحيح، طلب أن يلقى أباه «عم حسين»، فأجاب الطفل:

- أبي مشغول الآن.

فألحَّ عليهِ الإمام، فأكد الطفل ثانيةً:

- أبي يضرب الآن أمي، عد في وقتٍ آخر يا عم.

دخل الطفل وأغلق الباب، أعاد الإمام مفزوعًا الطرق، لكن لم يفتح، التفَّ حول البيت باحثًا عن مدخلٍ، وكلَّما دارَ حول البيت علا صوت الصراخ بالداخل، في ظهر البيت كان

زحام من الناس كأنَّه سوق، ومع ذلك صوت صراخ المرأة في الداخل يغطي على كلِّ شيء!

وقف ينظر للناس وهم يتصرفون كأنَّهم لا يسمعون، يبحث عن أملٍ من باب ليدخل منه، أو جزء من نافذة ليكسرها، كل شيء حوله لا يصل به إليها.. إلا أن يسأل الله!

هُنالِك.. رفع رأسه للسماء، وعينه تمتلئ خجلًا، يعلَم أنَّه لا يحق له الدعاء ومع ذلك.. طمع، لكن قبل أن يفتح شفتيه.. سكت، وسكت معه صوت الصراخ!

ملأه القلق، أخيرًا وجد نافذةً بخشبٍ متهالِك، سريعًا وقف أمامها يدفع بقدمه الخشب، وعند آخر واحدةٍ وقف بالداخل أمامه رجلٌ ضخم وجذبَه من ملابسه، وفي دقائق كان الإمام مكوَّمًا أرضًا بين يدي الضخم، وبجانبه ترقد امرأة خائفة، ترتعد أسفل طاولة وتكتم صرخاتها بيدها، هبَّ الإمام واقفًا، فاندفع الضخم إليه لكنه تلافى اندفاعه وتحركَّ مبتعدًا، ثُمَّ هتف بغضبٍ:

- أحمق.. أنت هو الأحمَق الذي رأيت بالضبط.

استوقفت جملته الضخم، فسكت في آخر لحظة وصرخ به:

- من الأحمق يا أحمق!

فصرخ الإمام بصوت أشد منه:

- أنت هو، وقد رأيتُك تفعل كل هذا من قبل، لكن هذه المرة النتيجة ستكون مختلفة.

ظهرت الحيرة على وجه الرجل وهمَّ بضربه لكنه أوقفه بحركة من يده وأكمل:

- ألستَ أنت عم «حسين» بائع الكتاكيت؟

نظر الرجل لزوجته باستفهامٍ ثُمَّ عاد للإمام ينتظر توضيحًا، فأكمل:

- كنتُ نائمًا، وأنا رجل يُقدِّس نومه جدًا، لكنِّي استيقظتُ من النوم على رؤية أزعجتني.. لرجلٍ اسمه «حسين»، كان يبيع الكتاكيت من قبل، سيضرب زوجته يومًا، ومن شدِّةِ غضبه سيرتفع ضغطه ويسقط أرضًا، وفي أثناء سقوطه سترتطم رأسه بالأرض ارتطامًا شديدًا ويموت.

ضحك الضخم بشدة وهو يسمع كلمات الإمام، وهتف ساخطًا:

- كل هذا الكذب لأجل أن أتوقف عن ضرب هذه المرأة! لماذا كل هذا العناء والتأليف يا عم الشيخ؟! كذلك كل زوج منَّا حرٌ مع أهل بيتهِ، ربنا هو من يحاسبنا، ويحاسبهم هم لو أغضبونا.

فقال الإمام بحدة:

- وربنا هو الذي أرسلني لك كذلك لأحذرك، فافعل ما شئت.

صرخ به عم «حسين»:

- وما دليلك؟

علت نبرة الإمام وهو يقترب من الضخم وقد بدا بعينيه بريق الحزم وثورة البأس:

- لأن الله لم يُظهر لي ضربك لزوجتك وموتك وحيدًا ذليلًا فقط، بل رأيتُ كذلك أنَّك منذ عامين انكسر صندوق الكتاكيت الذي تحملهم فيه، وهربوا كلهم، ولما استعدتهم.. تبقى خمسة لم تستطع العثور عليهم.

سكت الضخم لما سمع كل هذا، بدأ الخوف يدبّ إليه ويرتسم على قسمات وجهه واضحًا جليًا، فأضاف الإمام بحزمٍ:

- وأُمرتُ أن أعطيك هذه الخمسون جنيهًا، ثمن الخمس كتاكيت الآن، وبهذا غفر الله لسارق الكتاكيت، وغفر لك ضربك لزوجتك وإيذائها، ورد ربنا عليك روحك.

ابتلع الرجل خوفه في توتر، وسأل بشفاه ترتعب:

- ما دمتُ قد غفر الله لي، فلماذا الخوف الآن؟

- لأنَّك في كل مرة تهمّ أن تضربها، يجب أن تتذكر جيدًا أن هذه المرة قد تكون هي المرة التي ينتهي عندها كل شيء، فانتبه!

انكمش الضخم في نفسه أكثر، من خلفهِ ظهرَت زوجته، وهي تقترب منه رويدًا رويدًا، مسحت على كتفه في حنوٍ بالغٍ، قالت وهي تقترب منه:

- لا تخف، أنا هنا، معك لن أفعل شيئًا يدفعك لتضربني.

نظر الإمام لها بشبه صدمةٍ، هذا الجنون.. كيف؟!!

ثُمَّ اقترب منهما ووضع المال في جيبِ الضخم وعاد إلى الخلف في شيء من الرضا المملوء سكوتًا.

بخارج المنزل، وقفن النساء يحاولن الاستماع لما يحدث، لكن لا يصلهن أيُّ شيء، فالنار قد خمدت وكانت في أشد اشتعالها!.

عاد إلى الطريق ثانيةً، رفع رأسه إلى السماء، نظر قليلًا ثُمَّ سأل رجلًا يمرُّ بجانبِهِ:

- كم الساعة؟

- الخامسة والنصف.

- إذًا اقترب أذان المغرب! كيف الوصول إلى المسجد الكبير من فضلك؟

أشار الرجل له على طريق ترابي لا تسير به السيارات، ثُمَّ ابتعد وسار في طريقٍ مختلف، أخذ الإمام نفسًا طويلًا ثُمَّ بدأ سيره الطويل نحو المسجد الكبير.

❋❋❋

الساعة الثالثة

يسير في الطرقات لا يعرف أيُّ أرضٍ هي التي ستحمله حيث يريد، عجيبٌ حاله من الأمسِ، غريبٌ كل ما صار يفعله، كانت خطته أن يأتي دون أن يشعر به أحد ويرحل كذلك وهم لا يشعرون، لكن حالت دون هدوء خطواته المُهِمات!

المكان ليس مكانه، والأهل غير أهله، والناس جميعهم في وادٍ غير واد غيرهم، والحياة أعطته مُهلَة..

أو الحقيقة أن المهلة ما هي إلا فخ.. وعليه أن لا يسقط فيه، إن استطاع!

مُدمَّرة هي حياة المرء وهو يعيش وحيدًا..

لا يكاد يصل لغاية.. حتى يتلفَّت جانبه لينظر هل من مُدركٍ له؟ هل من داعمٍ؟ هل من...

يظلّ يبحث ليرى أيُّ الناس هُم به إلى خير.. وأيُّهم ينتظر أن يرى منه سوءًا!

من الخلف كان يُنادي عليهِ رجلٌ وهو يلهث من فرط تعبه وشدة جريهِ، فتوقَّف الإمام مُلتفًا تجاهه مُستفهمًا، انتظر حتى وصل إليه المُنادي والذي تبيَّن له أخيرًا أنَّه «عم حسين» بائع الكتاكيت، ولَّما أتى عنده سلَّم عليه وجلس أرضًا دون أن يهتم حيث هو ولا أين يرمي جسده!

نظر له الإمام بشيء من الاستغراب والتقزز في آن واحد!

ترقَّب منه توضيحًا أو تلميحًا أو تصريحًا، لكن ما زال الرجل يصمت وهو يجمع أنفاسه إلى صدره؛ فتُرَد عليه روحه، ويعود إليه ثباته، كلُّ هذا والإمام واقفٌ لا يدري أيذهب أم ينتظر!

لكن لفت انتباهه أرضًا قريبة بها نبات أخضر، ظلَّت عينه منجذبةً إليه، يتتبع الأركان ويفتش عن حارسٍ قريب من الأرض أو فيها..

أخيرًا تكلَّم بائع الكتاكيت وقطع عنه بحثه:

- هل حقًا رأيتني أموت في الحلم يا شيخ؟

أشاح الإمام بوجهه بعيدًا عنه محاولًا أن يُخفي حقيقة الأمر، لكن الرجل مدَّ يده حيث قدم الشيخ، أمسك بها وهو يتوسَّله:

– أجِبنِي، ووالله إن زوجتي لامرأة تثير غضبي دائمًا بأفعالها، لكني أحبها، وأحيانًا تتفلَّت منِّي نفسي، فلا أنتبه لروحي غير وأنا أضربها.

مدَّ الإمام يده إليه ليساعده على القيام، وعلى جانب الطريق كان مجلس رجال وكراسٍ كثيرها فارغ، وبعض المشروبات تنزل إليهم من المنزل الذي يعلوهم، كان المكان يُشبه كأنَّما قام أحدهم بفتح مجلسٍ داخل بيته وأمامه!

سار الرجلان حتى وصلا إليه واتخذا مكانًا قريبًا من الطريق، عاد بائع الكتاكيت للكلام مباشرةً:

– المشكلة نفسها لا تستحق، لكن ردَّ فعلها دائمًا يعصِّبني، عدتُ من العمل وكانت لم تجهِّز الطعام، والحُجَّة أنها تعبانة، فهل تتعب مثلي؟! هل تشقى مثلي؟ هل تهلكها الدنيا بالعمل والهموم كل يوم مثلي؟؟

انتهى من سرده وتلكَّأ بصره على وجهِ الإمام ينتظر منه تأييدًا، أو حتى تفهّمًا للدافع الذي وصل به إلى هذا الحال، وإيمانًا بكونهِ غير عامدٍ لكن مضطر.. فمغفور له بإذن الله!

لكن كانت عين الشيخ صامتة، ووجهه لا يظهر عليه أي اهتمام!

تنحنح الإمام في النهاية وقال بهدوءٍ مستفز:

- لا أعتقد أن هناك شيئًا لفت انتباهي هذه الساعة غير أنه

حينما أخبرتكم برؤيا موتك، كانت زوجتك هي الشخص الذي أقبل وقال بكل رعب الدنيا عليك.. «أنا هنا معك، لا تخف، ولن أفعل شيئًا يجعلك تضربني».

رفع بائع الكتاكيت حاجبه له استنكارًا، فابتسم الإمام بغيظ وهو يضيف:

- أعرف عن النساء ما يجعلني على يقينٍ أن المفترض في هذه الحالة أن تتمنى المرأة موتك لا حياتك، وعلى الرُغم من كل هذا.. تقف زوجتك عندك وتقول ما قالت!

فكيف جعلتها تؤمن أنها تفعل ما يستحق الضرب، أو أن الضرب في حد ذاته أمرًا مقبولًا؟!

لم يتوقع الرجل مثل هذه الكلمات منه، كان يحسب أن دوره الآن سيكون في إطار إيضاح سبب ضربه وشرح الأمر للشيخ، وصناعة مبررٍ كافٍ ليُحسِّن من صورته أمامه، لكن الأمر لم يكن هكذا أبدًا مما أحبطه وألجم لسانه!

كانت عين الإمام ما زالت تتجه إلى الأرض المزروعة في شيء من الريبةِ والحذر، اقترب منهما طفلٌ تكاد تعرفه في السابعة من عمره، قدَّم لهما كوبين شاي وأشار إلى رجل بعيد يجلِس في الزاوية موضحًا:

- هذا الشاي هدية من الحاج «عرفات» الذي يجلس هناك.

حرَّك الإمام رأسه له ممتنًا، أما مرافقه فقام إليه وأقبل ليسلِّم عليه شاكرًا مسرورًا، وصَلَت في ذات الوقت أمام المجلس امرأة ترتدي الأسود وتضع حجابها على رأسها وتتركه مسدلًا مفتوحًا، وقفت تبحث بين الحضور عن شخصٍ ما، تقفز عيونها بين رؤوس الجميع حتى استقرَّت على رأس بائع الكتاكيت، فدخلت بين الناس وسارت حتى وصلَت عنده وسألته بكل عتاب الدنيا:

- نهون عليك يا «سي حسين» تخرج وما تقل لنا!.

كانت عين الرجل مملوءة حسرة وأسى، والمرأة واقفة تسمع صوت أنفاسها المُرتبكة في حضور حِبِّها!

نقل الإمام بصره بينهما في شيء من الدهشة والحيرة، لكن قطع الرجل عليه شعوره وهو يهتف مدافعًا صادقًا عن نفسه:

- والله يا «نَمُّوشَة» خرجتُ وراء الشيخ ونسيت أناديك وأنت بالمطبخ ترفعين الأطباق المكسورة.

رفع الإمام عينه بتعجبٍ لوجهِ المرأة فرآه يمتلئ نَمَشًا، فأسقَط عينه سريعًا وقد امتلأ غيظًا سائلًا:

- ما دامت هي «نَمُّوشَة» وأنت «سي حسين».. فلماذا الضرب والإهانة إذًا؟!.

نظرا له باستفهامٍ كأنَّما يقول شيئًا غير متوقع أو مفهومٍ إليهما، قالت المرأة:

- لكن أنا أستحق يا شيخ، لطالما جننته، وأعترف.

قاطعها « حسين»:

- لا تقولي هذا يا ست البنات، فأنا المخطئ، كان يجب أن أمسك نفسي.

بتقززٍ قطع الإمام عليهما جلسة عتاب المحبين تلك وهتف:

- من أخبركما أن هذا الذي تفعلان هو الحب.. أو الزواج؟!

همَّ بمقاطعته لكنَّه لم يسمح لهما بمزيد حكي وأكمل:

- هذا الذي تصنعان هو عين الفساد، ألديكم أولاد؟

- نعم.

- إذًا زاد الفساد، فأولادكم الآن يقتنعون أن من الطبيعي جدًا ضرب الزوج لزوجته، وعلى النساء أن يتقبلن فكرة أن الخطأ منهن يعني أنها تستحق الضرب!

بأيِّ عقولٍ تربيتم!!

بان الغضب عليهما وهما يتطلعان لبعضها في صمتٍ، ثُمَّ احتال الغضب خجلًا والإمام يضيف:

- الزوج يحمي زوجته، لا يضعفها بالضرب ويذلّها بالإهانة، المرأة تحفظ زوجها في نفسها ومن نفسه، لا تسمح له أن يخرج أسوأ ما فيه أبدًا، دائمًا تدفعه ليكون أحسن.. لـيكون الأحسن،

وليس أن تجعل غاية حياتها أن تعيش مهذبةً حتى لا يغضب؛ فيضرب، هذا ليس الواقع ولا المجتمع ولا الإنسانية ولا العادات....

كان سيسكت لولا أن عيونهما تعلَّقت به دلالة نسيانه شيئًا مهمًا، فسكت ثانية ثُمَّ أدرك ما نسيه؛ فأضاف:

- ولا هكذا قال الــديـن.

هُنالِك أحنى الرجل رأسه والمرأة بعده، لكن من الخلفِ أتى صوت أجش يتكلَّم ببرودٍ:

- أنا قتلت زوجتي يا شيخ، وأهلها يعلمون ويسكتون، لأن الزوج على حق.. بل الزوج هو الـحق.

كان مصدر الصوت هو الحاج «عرفات»، والذي بمجرَّد أن أنهى كلمته، قام أغلب من بالمكان واستأذنوا الانصراف، حتى عم «حسين» وزوجته.. انسحبا، يُمسِك كل منهما يد الآخر مختبئًا بها، راضيًا ومكتفيًا.

وفي مشهدٍ عربيٍ لفيلمٍ قديم.. قام الحاج وعدل جلبابه، أزاح كرسيًا من أمامه بركلة من قدمه، وبخطواتٍ هادئات اقترب حتى وصل عند الإمام، فوقف عنده مبتسمًا وقال:

- منوَّر يا شيخ، لم تصل إلا الأمس وذكرك على لسان الجميع!

- أهم شيء أن يكون بالخير يا حاج.

جذب كرسيًا وجلس، قال بثقة:

- أنت المسؤول عن هذا بنفسك.

قام الإمام من مكانه مُنسحبًا من المجلس كله، لكن الحاج «عرفات» مدَّ يده وأمسكه من كتفه وزعق:

- لم أسمع جوابك للآن.. أنا قتلتُ زوجتي، ولم يحاسبني أحد، فما رأيك أنت؟

نظر الإمام ليد الحاج «عرفات» بفزعٍ لكنه لملم خوفه داخل صدرهِ وعاد لكرسيهِ مُحاولًا أن لا تظهر الرجفة التي تتملَّكه الآن على جسدهِ، أكمل الحاج بغضبٍ:

- امرأة لا تساوي ثمن ما أكِلَتْهُ معي وشَرِبَتْهُ طوال خمس سنوات، ولَّما آن الأوان.. أخذتُها معي في سفرٍ وعدتُ من غيرها، لم يجرؤ إنسان واحد على سؤالي أين هي!

رفع الإمام عينه إليه بأدبٍ وترقُّب، والحاج يضيف:

- بعض النساء تكون حياتهم زائدة عن العدد.

كان الحاج كمن يضيف للنار وقودًا، كلَّما قال جملة ووجدها تمرّ دون رد؛ أضاف غيرها، الكثير من الكمد والغيظ كان واضحًا في كلمات الرجل، حركاته، نفَسهُ كان مُحترقًا كألف جمرة، وجهه ساخنٌ أحمر، إلا عيناه..

كانتا غارقتين في حزنٍ عميق، وهذا ما جذب الإمام، وأدهشه!

فاعتدل بانتباه، أعاد في رأسهِ كلمات الرجل الأخيرة، توقف عند جملة بعينها، اقترب قليلًا من الحاج وقال بصوتٍ منخفضٍ وواضح:

- أين هي يا حاج «عرفات»؟

عاد الرجل بظهرهِ للخلف متفاجئًا من جرأة الإمام، غاضبًا عليهِ مغتاظًا، لكن الأخير لم يترك الفرصة؛ فأضاف:

- القاتل لا يحكي عن قتيلته بكل هذا الغضب يا حاج «عرفات»، القاتل يحكي بكُرْهٍ.

علا صوت الحاج صارخًا به:

- الزم حدودك يا شيخ وإلا ندمتُك.

- ومن قال أني أتعدى حدودي!

أنت قلت لم يسألك أحد من قبل أبدًا «أين هي؟»

وكلُّ ما فعلتُ أنني سألت!

سكت الحاج دقيقة يستجمع فيها أنفاسه المُهتاجة، أشار بعدها بيده؛ فخلا المكان إلا منه والإمام، قال بثقةٍ:

- ماتت!

فاعتدل الإمام وعلَّق:

- فارق كبير بين «ماتت».. و«قُتِلَت».

عين الحاج ما زالت تغرق، لكن وجهه جامد، صخرٌ لا تظهر عليه أي عاطفة، سأل:

- ما الفارق؟

في الحالتين رحلَت.

- الفارق كبير يا حاج، أنت تتباهى بقتلها، أنت تنشر بين الناس أن القتل مقبول، وغيرك ينشر أن الضرب مقبول، وغيره يُثبِت أن الطرد مقبول، وكل واحد منكم لا يقصد أي من هذا.

هُنا قاطعه الحاج مندفعًا بقسوة:

- لكني قصدتُه يا شيخ، أنت فهمتَ خطأ، أنا حقًا قتلتها، كانت تحتاج أن أذهب بها للطبيب مبكرًا عن هذا، وحسبتُها تبالغ، ولمَّا قررتُ الذهاب بها، لم تحتمل حتى تعب الطريق.. وماتت!

كان سيلُ الكلمات مفاجئًا، حتى أن ما عرفه كان أكثر مما يتوقع، ما بال هذه القرية تندفع في حكاياتها مع الغرباء!

كُلَّما سأل سؤالًا أو أعطى جوابًا أو حضر مشهدًا.. سمعوه وتحدَّثوا!

هذه ليست الطبيعة البشرية أبدًا، بل هي طبيعة الشخص المُحتاج، من يبقى طوال عمره يتلهَّف لسؤالٍ أو حدَثٍ أو عملٍ أو إنسان!

وبمجرَّد أن يظهر أمامه طيف ما يتلهَّفُ له أو عليه؛ ينسكب فوقه بكل ما أوتي من انتظار، ويصبّ كل ما كان مكتومًا ومخبوءًا طوال سنوات يحترق شوقًا لهروب أو مخرجٍ!

قام الإمام من مكانه واقفًا، متحركًا بالمكان، تظهر من حركة قدمه ارتباك الخطى، لا يدري ما الذي يثير حنقهِ أكثر، أنَّ القرية بهذا السوء.. أم أنَّ أهلها بهذا الضعف.. أم أنَّه لا يريد أي علاقة بهذا المكان، لكنه يغوص كل ساعةٍ فيه أكثر وأكثر!!!

عينا الحاج تتبعه، هدأت ثورته في نفسهِ لكن قامت قيامتها في نفس الإمام، يريد سؤاله عن ما يجري له، لكن تمنعه حقيقة أن هذا الإنسان لا يعرفه، وبالفعل سمع منه ما لم يسمعه غيره، وعرف ما لم يكن له أن يعرفه، فصمت على حذرٍ منتظرًا رده.

أمَّا الإمام فقد توصَّل أنهم يتعاملون معه كما يتعامل أهل المسيحية مع رجال الدين عندهم، يذهبون إليهم ويحكون ما عندهم من أخطاء وزلَّات، ثُم ينالون مغفرةً من الكاهن لأنهم اعترفوا له!

عجيبٌ لو صدقوا حقًا!

لكن الناس هنا لا يتصرفون كلهم هكذا.. أو يفعلون!

لا يدري.. لا يفهم حقًا ما يجري، هو فقط قادم في مهمة، مهمة سيئة لكنها حبل نجاته وعليه أن يصل مهما كلَّفه الأمر من حكاياتٍ وقصصٍ ومساعدات.

عاد إلى كرسيهِ وتكلَّم بهدوءٍ:

- ألهذا أنت غاضبٌ يا حاج؟

لأنَّها تركتك وماتت!

وكأنَّما طعنه الإمام في قلبه بهذه الجملة، فهبَّ من كرسيه وأمسك برقبته وصرخ:

- أنتَ غبيّ.. غبيّ، أنا قتلتها، أنا..

هي لم يكن بيدها أن تبقى، أنا الذي كان بيده كل شيء.

أنفاسه تقل شيئًا فشيئًا، يد الحاج ما زالت تضغط على عنقه بقوة، يضرب هو يده ليفكَّه.. أخيرًا انتبه الحاج؛ فأفلته فورًا، سقط الإمام أرضًا بقوة وهو يشهق شهقات مفزوعات والحاج يتهاوى على كرسيه وقد بدا الألم على وجهه أشد مما يتحمَّله إنسان.

دقائق ثقيلة مرَّت على كليهما، هذا مرتعبًا والآخر مرتقبًا، والناس لم تعد تسير بالطريق الذي يجمعهما خوفًا ورهبةً وحذرًا.

أخيرًا استجمع الإمام حاله ولملم أمره، واستند على حجر قريبٍ ثم طاولة، ثم قام إلى كرسيه عدله وجلس عليه ونظر للحاج في صمتٍ، فقال الأخير بأسًى واضح:

- كانت حُلم حياتي في شبابي، وأنا حلمها.

«لازال يحكي!، يريد أن يحكي!!»

هكذا قال الإمام في نفسه وجسده كله يئن، لكن عقله يزداد تعجبًا من هؤلاء الناس، آثر السكوت حتى لا يستفز الحاج ثانية، تابع الأخير بصوتٍ يمتلئ ألمًا:

- كانت كل ما تمنيتُه، ولم أكن أي شيء مما تمنته، لكني كنتُ أحبها، وهي رضيَت بهذا، في النهاية لمَّا مرضت قلتُ لها عندي

صفقة مهمة، أنهيها ونسافر إلى القاهرة، نذهب لأحسن الأطباء؛ فصبرت.. ولَمَّا آن الأوان لنذهب، كان أمر الله نزل في الطريق!

قالها وضرب بيده على الطاولة أمامه؛ فسقط كل ما عليها، وفزع الإمام من جديد، أشار له الحاج مُهدئًا:

- اجلس.. اجلس يا شيخ، كانت لحظة جنون ومرَّت، لا خوف عليك.

حاول الإمام أن يجمع عليه قوته وثباته لكن ظهر تماسكه ضعيفًا جدًا، فعقد يديه أمام صدره كأنَّما يُلملم ما يقع من روحه ويُرَّقعها لتثبت!

تحدَّث بصوتٍ مخلخلٍ:

- لستَ أول من ماتت زوجته يا حاج بسبب المرض؛ فهوِّن عليك.

نظر له الحاج «عرفات» بعتابٍ ودافع عن نفسه:

- لكنها لم تملك من الحياة كلها غيري ليقف معها أمام المرض.

- وهل ستقف معها أمام الله أيضًا؟!

كان السؤال منطقيًا جدًا، لكن حتى ذلك لم يمنع الحاج من الاندفاع:

- نعم، أقف.

هُنا ابتسم الإمام ومدَّ يده حتى وصلَت إلى قدم الحاج وخبطَ خبطةً خفيفةً وقال:

- الآن زوجتك تنظر إليك وتعاتبك.

رفع الحاج حاجبه مُندهشًا، لم يتوقع تلك الإجابة على جملته، كان يعلم أن الرد سيكون.. «استغفر، وأنت جُننت»، أشياء من هذه المعاني، لكنه أخذه في اتجاهٍ آخر، فسأله باهتمامٍ:

- ماذا تعني؟

- أعني أن زوجتك في ضيافة الرحمن الآن، وأن تتعدى الأدب مع مُضيفها، فهل تراها راضيةً عليك؟!

مع كل ما فعلتَه وقصَّرت فيه معها.. تزيد على ذلك الآن بسوء أدبك مع الله!

كانت الجملة الأخيرة ثقيلة، احمرَّ بسببها وجه الحاج من الغضب لكنه تبدد سريعًا وأشار بيده للإمام أن يُكمِل، أما

الأخير فكان حائرًا لأنَّه لا يستطيع أن يزيد في هذا الباب، فهؤلاء القوم يحسبونه شيئًا غير حقيقته، ويعقدون عليه آمالًا طوال، وهو في أصل الأمر لا يعرف كيف يضع فيهم موعظةً أو يصيغ لأجلهم خطبة!

ظلَّت النظرات تتبادل بينهما حتى قطعها الحاج بسؤالهِ:

- ماذا تريد مني يا شيخ؟!

- لا شيء.

- إذًا لماذا تفتح هذا الموضوع؟

- لم أفتحه يا حاج، أنا كنتُ أتحدَّث مع «عم حسين» وزوجته، أنت من سمعتنا وتحدثت.

كان تعليق الإمام حقيقيًا مما دفع الحاج للصمتِ، تنبَّه الأول حينها أنَّه ربما أفسد شيئًا صالحًا كان يعتمل داخل صدر هذا الرجل؛ فأنَبَّته نفسه؛ اندفع حينها قائلًا:

- تعلَم يا حاج.. أنت أول رجل يمرّ عليَّ بحياته وهو يحب زوجته هذا الحب!

في البداية كان وقع الكلمات عاديًا، لكن لم تمضِ ثانية حتى امتلأ وجه الحاج فخرًا وهو يسأل باهتمام:

- حقًا؟!

- حقًا، ولعلَّك لو كنت بزمانِ عنترة وامرؤ القيس لكتبوا عنك كذلك وزوجتك.. ما اسمها يا حاج؟

نظر له الحاج باحتقارٍ لسؤاله، فبلع الإمام استفهامه داخل جوفه وأكمل:

- في كل مكان يجب أن تكون هناك قصة يعلمها الناس ويتعلَّم منها من يأتي بعدهم، ولعلَّ قصة حبك الآن هي قصة هذا الزمان.

كان ما يقوله الإمام ينزل على قلب الحاج فيهدئ من لوعتهِ، فقد بدا أن كل ما يعرفه عن الحب فيما مضى غير صالح لما هو آت، فلم تعد «أحببتها» تكفي للحكاية، بل «كيف أحببتها!».

- توقَّف عن قول أنَّك قتلتها، فهذا إفساد بين الناس، وهنا حولك يتخذون دومًا القوي قدوة، فلا تنشر فيهم ما يجعلها هناك تنظر إليك وتحزن لأجله عليك، بل اجعلها فخورة وهي

تنادي على زوارها وتقول.. «انظروا، هذا زوجي، وهذا ما يصنع من بعدي».

هنا سكت الإمام، وسكت صاحبه، وابتسما!

مضى القليل من الوقتِ وقد نزل لهما الشاي، يشربه الحاج في راحة لم يشعر بها من زمنٍ، كأنَّما قد عرف سرّ البشرية، أن الكلمات العالقة في الصدور، تخنق الروح لا تعززها وتوقرها، الآن بعدما سكب ما سكب؛ يشعر بخفة، تجدد الألم.. لكن لعلَّه فُتِح ليلتئم من جديد على نظافة وطُهر!

سأل باهتمامٍ:

- ما الذي أتى بكَ إلى قريتنا يا شيخ؟

رفع الإمام رأسه إليه بخوفٍ مستترٍ، أكدوا له أنه لن يسأله أحد هذا السؤال، وأنَّ الأمر سيمضي بلا شك أو قلق، فقط يفعل ما أتى لفعله ويرحل، أعاد الحاج سؤاله فتنبَّه له الإمام هذه المرة وأجاب:

- اكتشفوا عندنا بالوزارة أن المسجد الكبير هنا بلا إمام هذه الأيام؛ فأرسلوني لأخطب فيه الجمعة وأصلِّي الصلوات الجهرية بالناس.

- وأين أهلك يا شيخ؟

ممتلئًا بالأسى لفواتِ شيء مهم.. كانت إجابته:

- وحدي أنا يا حاج، لم أتزوج.

تعجَّب من إجابته وسأل عن السبب، فأجاب الإمام بصدقٍ:

- كنتُ أعيش ببلدٍ عربية والسنوات تفلَّتت من بين يديَّ، ولَمَّا عُدتُ حاولتُ البحث عن زوجة تناسبني لكن لم يتيسَّر لي الأمر حتى الآن.

- نبحث لك لو تحب.

كان الإمام يعلَم أن وجوده بهذه القرية هو محض أيام، وعلى الرُغم من ذلك ردَّ:

- ابحث يا حاج، وربنا يوفقنا جميعًا.

قالها وقام من مكانه وهو ينظر لساعته ويضيف:

- كنتُ أتمنَّى الوصول إلى المسجد لصلاة المغرب، لكن مضى وقتها للأسف.

بدهشةٍ قال الحاج:

- المسجد بعيد جدًا يا شيخ، من المستحيل بدايةً أن تصل إلى هناك في هذا الوقت القصير.

- لعله خير.

قام الحاج من مكانه وأشار على الأرض القريبة منهم وقال:

- هذه أرض «الأسيوطي»، دائمًا ما يكون ابنه خارجًا في هذا التوقيت بعربته التي تجرها الأحصنة، عساه يمرُّ بنا الآن فيحملك معه إلى المسجد يا شيخ.

انتبه الإمام لكمِّ المعلومات الذي وصله الآن من حيث لا ينتظر، فقال للحاج:

- سأذهب للأرضِ بنفسي وأسأل عن ابن «الأسيوطي»، فالوقت ضيق ويجب أن أتحرَّك الآن.

ودعا بعضهما بحرارةٍ كأنَّ بينهما من السنواتِ ما لا يُعَد، ومن الذكريات ما لا يُحصى، ثُمَّ اتجه الإمام للأرض التي كان ينظر إليها من بعيد.. الآن وجد سببًا ليدخلها.

***

الساعة الرابعة

للأرضِ حارسٌ يقف عند رأسها، وآخر عند ذيلها!

لم تكن المساحة كبيرة، لكن كل زاوية مُراقبة بالكاميرات، والحدود تسوَّرت بالأسلاك، أما النباتات فكانت داخل صوبة، لها سُقيا مخصوصة ومعدات، كل هذا يبدو مبالغًا فيه بعض الشيء، إلى أن تعرف أن النبات المزروع هو «عشبة الحشيش»!

ظلّ يمشي إلى أن وصل للحارسِ الأول؛ فاستقبله بترحابٍ.. «أهلًا أهلًا يا شيخ»، تعجَّب أن يُسلِّم عليه الرجل وهو لا يعرفه، لكن تبدد تعجُّبه لما قال له:

- كنتُ ممن تجمعوا على الشاب بالأمسِ وضربوه.

هذه الكلمات الأخيرة أتت على استحياءٍ وهو يضيف:

- لكن والله امتنعتُ عنه بسببك، ولن أعود لمثل هذا مجددًا.

كانت الكلمات صادقات، حاول الإمام تذكُّر ما فعله بالأمسِ، كان شيئًا بسيطًا وعملًا لا يعد كبيرًا، فما بال القرية

تعظِّم كل شيء!

الحقير والجدير.. لا يختلفان في نزولهم بقلوب الناس، لكنهم هنا يأخذون الأمور بقوة، ويتركونها بقوة.. لا شيء أصيل فيهم، ولا معنى مبني على أساس، كلها أبنية من هواء..!

حتى الخير عندهم مجزوء، والشر.. مجزوء أيضًا!

تعتمل بعقلهِ أفكار.. تسلك في نفسه مسالك معقدة، تحتمل مفاهيم جديدة، وتموت داخله مفاهيم أخرى..

هل يتغير الإنسان من موقفٍ واحد يمر به.. أم أنَّ الناس نتاج مواقف تأخذهم وتعود بهم، تصعد وتنزل داخل صدورهم وعقولهم؟!

شتَّان بين ما يعرفه قبل.. وما يجده الآن ويلقاه!

قطع أفكاره صوت الحارس وهو يعود إليه ليسأله:

- ماذا أردتَ من هنا يا شيخنا؟

كان السؤال وقورًا جدًا، لم يعرِف كيف يتجاوب الإنسان عند هذا التبجيل، لم يجرّبه من قبل، لكن تظل المرة الأولى هي الأروع في قاموس التجارب على أي حال!

– قيل لي أن ابن «الأسيوطي» يخرج في مثل هذا التوقيت بالعربة لأطراف القرية...

هاهُنا قطع كلامه قدوم الحارس الآخر والذي وقف أمامه وسأل بصوتٍ يقطر ضيقًا:

– لماذا تطيل الوقوف هنا يا هذا؟!

أسرع الحارس الأول بإيضاح موقف الإمام، من هو.. ولماذا أتى، لكن الحارس الآخر نظر له بريبةٍ وشكٍّ، وهمَّ بإزاحته خارج بوابة الأرض لولا أن أوقفه الأول بيده وهو يهدأه ويضيف:

– اسمعني يا «عثمان».. هذا رجل من أهل الله، اتركه يدخل لابن «الأسيوطي».. اتركه.

لم تفد كلمات الحارس في تهدئة الأمر، فتحدَّث الإمام بثقة:

– لم آتِ إلا لطلب توصيلة لأطراف القرية لا أكثر، فلماذا كل هذا الرفض؟!

نظر له الحارس بأسفٍ وهمس:

– لا تحزن منه، هو لا يعرفك، ويظن أن الناس كلهم يكذبون، لا يعرفك.

بعينٍ مستفهمة كان الإمام يسأله في صمتٍ.. «وهل تعرفني أنت؟؟!»

أجلَس الحارس الأول.. الحارس الثاني، وقال له بصوتٍ خفيض:

- هذا شيخ المسجد الكبير يا «عثمان»، جاء حتى بابنا.. أنغلق الباب في وجهه يا رجل؟!

نظر «عثمان» له باهتمام؛ فأكمل بهمس:

- فرصة أن جاء ولا أحد يسمعنا؛ اسأله عن «سُعادة».

جحظَت عينا الرجل وهو يسمع الاسم، لكن الأخير أمسك وجهه بكفٍ واحد وزعق به:

- لا تضيِّع الفرصة يا رجل، هيا حتى يرتاح عقلك.. هيا.

هدأ «عثمان» وهو يجمع نفسًا أو بضعة أنفاسٍ، التفت ينظر للإمام بشكٍ ما زال يتملَّكه، لكن تكلَّم في النهاية:

- اسمع يا رجل.. عندي بنت في العاشرة، خطبها ابن عمها وأنا وافقت، وسيتم الزواج وهي بنت خمسة عشر، الآن هذا العجوز...

قالها وهو يشير للحارس الأول بغضبٍ:

- هذا العجوز يعترض ويقول أن انتظر حتى تصل للخامسة عشر أولًا ثم انظر رأيها حينها.

هتف الحارس الأول مستنكرًا:

- وكأنِّي أجرمتُ!

- نعم.. أجرمت، فأنا أبوها.. أكثر الناس حرصًا عليها وعلى مصلحتها، ولن أتركها تتزوج بمن لا يصونها، وهذا ابن عمها، هو بها أولى.

- هو بها أولى!

كأنَّما هي مصيبة ويجب الخلاص منها، لا أحد بها أولى يا «عثمان»، هي أولى بنفسها ومصلحتها، لا أنت ولا أنا ولا ابن عمها.

- لماذا تتدخل يا رجل في الأمر؟!

أم لأنك لا أبناء عندك فتريد التحكُّم بأبناء غيرك؟!

كانت الكلمات الأخيرة مندفعات بشراسة من فم «عثمان» والذي بمجرَّد أن قالهم، شهق بقوة واحمرَّ وجهه غضبًا وهو يصرخ:

- انظر ماذا فعلت!

انظر.. جعلتني أؤذيك وأنا والله لا أقصد، والله لا أقصد.

يزداد احمرار وجه «عثمان» الغاضب من نفسه، ويَبْيَّض وجه الحارس من الحزن والحرج؛ هُنالِك لم يجد الإمام مفرًا من التدخل، وكان قد أخذ عهدًا على نفسهِ ألا يتحدَّث لأحدٍ بعد الآن، فمثله لا يصلح للحديث أبدًا:

- أنت تزوجت وأنجبت، وهو تزوج ولم يُنجِب، وأنا لم أتزوج فلم أُنجِب، ربما هذا هو الخير، لا أحد يعلم كيف لنكون لو أعطانا الله شيئًا لم يكن من الخير أن يأتينا.

تدخَّل الحارس مقاطعًا:

- أعتقد أني كنتُ سأصبح أبًا صالحًا، بل أكثر أب صالح عرفته هذه القرية.

هدأ الغضب على وجه «عثمان» وحلَّت محله الشفقة، والآخر يُكمِل:

- يقولون البنات تُدخل أبوها جنة الآخرة، وأنا ابنتي كنتُ سأدخلها جنَّة الدنيا، أنا واثق من هذا.

صار وجه «عثمان» ينضح بالفخر وهو يهتف به:

- أنت أحسن صديق يا رجل وأعظم أخ في الدنيا، أكيد كنتَ ستصبح الأفضل في كل شيء، وقلتُ لك من قبل.. «سُعادة» ابنتك كما هي ابنتي، أنا فقط أريد الاطمئنان عليها.

- وأنا أيضًا، لكنك تظلمها يا «عثمان»، من وهي في العاشرة تربطها برجلٍ لا تعرف حقيقة أخلاقه ولا حاله، تعرف أنه يعمل في السعودية وفقط، فكيف نضمن أنه سيُسعِد «سُعادة»!

كان السؤال منطقيًا والحديث صادقًا من الرجلين، والإمام لا يدري ما هو الرد المناسب هنا، فالأولاد لا يُتَّخذون اتخاذًا، وإنَّما يُنْعِم الله بهم على من يشاء من خلقهِ، وأكثر ما تحمله الأرحام إنَّما هو ثمرة من ثمرات الحب يُؤتى بها عفوًا، وليست زرعةً من نبتات الأرضِ يُؤتى بها قهرًا، فلا فضل إذًا لمن أتى بثمرةٍ أو لم يأتِ.. فكلها بلا نهجٍ ثابتٍ ولا قانون، غير أنَّ الله قال «كُن»؛ فتكون.

- أتعلَم أن من حقِّ «سُعادة» أن تشتكيك إلى الله؟

رفع «عثمان حاجبه مغتاظًا؛ فأكمل الإمام:

- أنتَ هكذا تزوجها بالإكراه.

- إكراه! لكنِّي أبوها وأنا الأدرى بمصلحتها، وهي ليست مُكرَهة، بل توافق برضًا لأني...

- أبوها!

قاطعه الإمام بها، وأكمل:

- ومن قال أنه لكونك الأب فمن حقك أن تقرر عنها هذا؟!

كذلك من أفهمك أن قبولها لهذا الزواج هو البر، وأنها لو رفضت فهي إذًا لا تبرُّك؟!

والأسوأ من كل هذا هو أنها ستوافق لأنها لا تعرف غير أن توافق.

كانت اعتراضات الإمام مستفزَّة لكلا الرجلين، لأن واحدًا منهما يرى البر في الطاعة وفقط، والآخر يرى البر في حسن الاختيار أولًا ثُمَّ الطاعة أيضًا، نقل الإمام نظره بين الرجلين وأكمل:

- المشكلة هنا أن قبولك لابن عمها جعلها مرهونة به، كأنَّها كُتبَت باسمه، خمس سنوات.. زمن طويل لتبقى الفتاة مُقيدة!

وهي في الحقيقة لا تعلم عن الشاب شيئًا ولا عن نفسها أيضًا، هي طفلة.. مجرَّد طفلة، اعتادت أن تقول «نعم»، فجأة وهي في الخامسة عشر نسألها سؤالًا تتوقف عليه حياتها كلها، وننتظر منها غير الإجابة التي اعتادتها!

طغى الصمت على الرجلين، يُكمل الإمام:

- «سُعادة».. اسمها جميل، أتعلمان أن لكل إنسان من اسمه نصيب!

لا تصعِّبان عليها الحياة، فالحياة صعبة بما يكفي، اسمحا لها أن تختار سعادتها بنفسها وإلا لن تسامح أي إنسانٍ كان طرفًا فيما أصابها من حزن أو اختارت بسببه اختيارًا خاطئ.

أنهى جملته وقام من مكانه يسأل بهمةٍ:

- الآن.. أين أجد ابن «الأسيوطي» لأسأله أن يأخذني معه في العربة؟

أشار له «عثمان» على مدخلٍ قريبٍ وقال:

- من هُنا يا شيخ، ادخل وستجد بابًا كبيرًا في نهاية الممر، اطرقه وانتظر.

تحرَّك الإمام كما قيل له، وكان قد انتبه أن الرجل ناداه بـ «شيخ»؛ فابتسم وأسرّها في نفسه!

ممر طويل سار به حتى وصل لآخره، بابٌ أبيض يُضيء وسط الظلام، كأنَّما تنطبق عليه مقولة.. «الضوء الذي يسكن آخر النفق».

طرق الباب طرقًا خفيفًا ولَّما لم يجد ردًا اضطر أن يزيد من طرقهِ حتى أحسَّ بحركةٍ آتية من خلف الباب، فتوقف عن الطرق وانتظر، ثوانٍ حتى فُتِحَ الباب وظهر من خلفه «عامل المسجد»!

لدقيقةٍ لم يستوعب الإمام وجود العامل أمامه، كذلك لم يدرِ العامل سبب وجود الإمام عنده، تناقلا الكثير من الاستفهامات في حركة عيونهما فقط، حتى قام «العامل» بقطعها أخيرًا وهو يسأل باهتمامٍ مملوء بالحنق:

- ماذا تفعل هنا؟!

أجابه الإمام بشيء من التهكُّم والكثير من الاستعلاء:

- ما الذي تفعله أنت؟!

أنا هنا لرؤية ابن «الأسيوطي».

ازداد غيظ العامل وهو يجيبه:

- أنا هو.. فماذا تريد؟!

كانت الإجابة بالنسبة للإمام مضحكة، لكن الجدية التي ارتسمت على وجه العامل أقنعته أن الأمر حقيقي، فأُلجَمَ لسانه وامتلأ عقله بمئات الأسئلة، ترك العامل الباب مفتوحًا ومشى حتى وصل لكرسيٍ قريبٍ، جلس عليه وأشار للإمام أن يتفضل ليجلس هو الآخر، ولمَّا فعل الأخير هذا سأله «العامل» مباشرةً:

- لماذا جئت إلى هنا حقًا؟

ابتلع الإمام قلقه وحاول أن يبدو واثقًا وهو يجيبه:

- المسجد بعيد.. والحاج «عرفات» أخبرني أنك تخرج كلَّ يومٍ في هذا التوقيت بالعربة إلى أطراف القرية، واقترح عليَّ أن آتِ إليك وأعرض عليك أن أذهب معك، فجئتُ لأفعل.

بعدم تصديق قال «العامل»:

- الحاج «عرفات» قال هذا؟!

الرجل تكلَّم معك بلسانه حقًا أم بيده!

كان التهكُّم واضحًا لكن الإمام لم يهتم له، فالأمر الآن بنظره قد تعقَّد أكثر، فابن «الأسيوطي» هو نفسه «عامل المسجد» الذي لا يطيقه، فكيف له أن يصل معه إلى مبتغاه!

الكثير من الأمور تدور برأس كليهما والوقت يمرُّ، تكلَّم أخيرًا الإمام:

- هل أنت حقًا ابن «الأسيوطي»؟

- نعم أنا هو.

- كيف تكون عامل المسجد إذًا؟!

- وما الذي يمنعني؟

- كلُّ شيء يا رجل.. كلُّ شيء.

زفرَ العامل بقوةٍ وهو يستفهم:

- تقصِد كيف يكون «عامل المسجد» هو ابن «الأسيوطي» صاحب الأرض التي رأيتها وأنت تدخل إلى هنا، صحيح؟

حرَّك الإمام رأسه حركةً خفيفةً دلالة موافقته، فأكمل الآخر وكأنَّما يُحدِّث صديقًا:

- ليتني أستطيع خلع «عامل المسجد» من ابن «الأسيوطي»، لكن هذا قدر الله، أتعلَم أن هذه الأرض قد كتبها والدي باسمي!

لمعَت عينا الإمام بقوة، وهذا ما رآه «العامل» حقًا في هذه الساعة، فنظر له باحتقارٍ وقد فهم أخيرًا كلُّ شيء، قال:

- كنتُ أعلم أنَّك سترى الفرصة كغيرك وتغتنمها.

سكن الحرج كل جوارح الإمام والأول يضيف:

- أما كان لك أن تتماسك وتترك التمثيلية التي تفعلها تمضي؟!

لكن رؤيتك للنباتات في الخارج حرَّكت بك شهوة الغنيمة، وما كان لك أن تتركها تتفلَّت منك.

حاول الإمام أن ينفض عنه التهمة التي لبسته، لكن مهما كان قوله وتبريره فـ «العامل» لا يراه أو يسمعه.

- وددتُ لو أحرق كلَّ هذه الأرض وأتركها خرابًا، لكن ما حيلتي؟

أقسم لي أبي.. «والله لا أسامحك لو ضيعت سنوات الشقاء التي بذلتُها في هذه الأرض»، ثُمَّ تركني ويسكن هو في بيتنا

على الأطراف الشرقية من القرية يتابع كل شيء ويتأكد من أني أقوم بكل شيء كما قرر، وها أنا مُسلسلٌ بها، أتابعها وأسقيها وأحرسها.. حتى يحلَّني أبي منها، أو يأتِ حقيرٌ مثلك يقاتلني عليها؛ فيقتلني وأرتاح!

كان الحديث يزداد خجلًا وتجريحًا في الإمام، لكن في هذه اللحظة سأل بصدق:

- لماذا تحيا كل هذا العذاب إذًا؟

نظر العامل إلى عيني الإمام محدقًا بهما للحظات ثُمَّ قال:

- حسنًا، سأتوهَّم لدقيقةٍ أنك صادق في سؤالك وأجيبُك.

- لكن أنا فعلًا صادق.

لم يهتَم العامل لرده وهو يكمل:

- لأنَّ خسارة والدي للأرض ستقتله، فإن دمرتُ الأرض؛ دمرتُه، ولمات وهو يلعنني دنيا وآخرة.

أطال الإمام النظر في وجه «العامل» يتساءل من أيّ فكرٍ تربَّى هذا الرجل، فالأبُ في القرى بالذات يُنشئ ابنه نشأةً تُشبهه ليكون هو الصورة التي كان يريدها لنفسه، حتى ولو كان

راضيًا عن نفسه بوضعه الحالي، سيريد أن يكون ابنه النسخة المُحسنة منه، لذلك من العجيب أن يكون الأب على كل هذا الحال من التمسك بالأرضِ والثروة التي تأتي منها، والابن على كل هذا الزهد فيها!!

«في الحياة قرارات مُرهِقة، تصنع من الذكور رجالًا، ومن الرجال ذكورًا، فهل هذه منهم؟!»

هكذا قال بنفسهِ وهو ينتبه لحال الغرفة التي يجلس بها، متواضعة لتكون بيتًا قد صنعه عامل مسجدٍ لنفسه، ولا تصلح بأي حالٍ من الأحوال أن تكون بيتًا لابن «الأسيوطي»، ومع ذلك يرى في عينيه امتلاءً!

كيف وهو يرى النعيم ويكاد أن يلمسه بطرف إصبعه!

الجنَّة واقفة أمام قدمه تنتظره أن يخطو إليها، تفصل بينهما خطوة، ولولا أن الجنة جماد لا يتحرَّك لأتته هي، لكن كان لا بد للخطوة أن تكون منه..

السعي هو خطوته المُنتظرة، والسعي هو خطوته الموءودة!

- ماذا تعرف عن البر؟!

ضحك «العامل» قائلًا:

- لا تلبس رداء الموعظة لأنه لا يليق بك.

لم ينزعج الإمام وأكَّد:

- تحمَّلني لا أكثر.

نظر «العامل» بملل وأشار بيده.. «تفضَّل»، فأكمل:

- أتعلَم أن البر لا يعني أبدًا الطاعة، وأنَّ فكرة أن يموت والدك وهو يلعنك.. لا تعني أنك حقًا ملعون من الله.

بنصف اهتمام يتابع «العامل» كلام الإمام:

- للأسف تربينا أن «البر» هو «الأدب».. والذي يعني أن نقول «نعم»، فهل تعلم أن من البرِّ حقًا أن تقول «لا»؟!

بدأ الحديث يستجلب انتباه «العامل»؛ فاعتدل بجلسته مُنصتًا:

- أخبرني.. هل تستطيع أن تمنع والدك؟

- لا.

- خطأ، تستطيع.

- كيف؟

– أن تعترض مرة واثنتين وثلاث، أن لا تسكت، فالسكوت رضا، والرضا استسلام.

– هل هذا ما تعنيه بأمنعه؟

لأنِّي فعلتُ مرة وألف، وبقيتُ أنا الابن الذي تسبب لوالده بأزمة قلبية، وأصابه بالسكر، ورفع له الضغط، فلا تحدثني عن المنع وأنت تقدِّم حلولًا لا تفيد ولن تؤثر.

– ومن قال أنها لن تؤثر؟

مشكلتك أنك توقفت عن المحاولة واستسلمت، لو أنَّك استمررت لكان الأمر أشبه بمعارك نخوضها ونكسب أو نخسر.. لا يهم، لكنها معارك تعرِّف الجهة الأخرى أن نفسك طويل، وأن الاستسلام ليس جزءًا من الخطة.

قام «العامل» من مكانه وتحرَّك حول مجلسهما وقد عقد يده خلف ظهره، أحسَّ الإمام فيه فهمًا جديدًا، كأنَّما بابٌ يُفتَح على أملٍ في نفس صاحبه، لكنه في ذات الوقت يُغلَق على نجاة في نفسه هو، فبالفعل يعلم ما يعنيه ما يفعل الآن، فهو من المتضررين لا مفر!

توقَّف «العامل» أخيرًا عن الحركة، التفت تجاه الإمام وسأل باهتمام:

- من أنتَ حقًا؟

ابتسم الإمام بأسًى واضح وهو ينظر له، قام من مكانه هو الآخر، تحرَّك حتى باب الغرفة وقال قبل أن يغادر:

- أنا مُدرِّس «أصول دين» وفي لحظةٍ ما نسيَ الدين.

وبخطوات ثابتات بدأ يتحرَّك في الممرِ من جديد عائدًا وخارجًا إلى الأرض المزروعة، نظر لها بزهدٍ وكرهٍ، تكاد تلمح في عينيه سيفًا وصيحة حرب، لا يدري هو نفسه كيف سيُنفِذها، أشاح بوجهه بعيدًا عن الزرع بتنهدٍ قويٍ، مرَّ في طريقهِ بالحارسين وقد صنعا كوبين شاي، تفوح رائحة الريحان منه، اقترب منهما فآنس دفئًا، سأله «عثمان» بصوتهِ الخشن سؤالًا كريمًا:

- أصبُّ لك يا شيخ؟

لكن الإمام ابتسم له ورفض بأدبٍ ومضى، سألاه من الخلف.. «ألن تذهب مع ابن «الأسيوطي» في العربة؟!»

فالتفت إليهما للمرة الأخيرة وأجاب:

- هذا طريق على ابن «الأسيوطي» أن يسير فيه وحده.

الساعة الخامسة

كُلَّما يسأل واحدًا.. «كم يبعد المسجد؟»

يُخبرهُ أن الطريق طويل، يعرف هذا، لكن ربما لأن ألم قدمه أكبر مما يتخيَّل، وعلى الرُغمِ.. ما زال يمشي!

يمضي كأنَّما يفرُّ مما وراءه، ويتحرَّك كأن الأرض لا ترضى بلمسة حذائه، ويتنفس كمن يخشى خدش الهواء بسحب نفَسًا منه أو نَفَسين!

صوتٌ يأتي من جانب الطريق يعرفه، أو لعلَّه يعرفه، رفع رأسه لينظر؛ فكان الفتى الأول، سارق البيض.

«الـذرة الـمـشوي.. الـذرة الـمـشوي»

اقترب منه بخطًى تعرف الألم، وابتسامة تشبه ابتسامة الصديق، ألقى السلام وكان الشاب يمسك قطعة من الورق سميكة يحرِّك بها الهواء فوق الذرة المشوية على الفحم، الرائحة تثير الدفء في الجسدِ أكثر من لهيب الفحم، هَبَّ الفتى معانقًا

الإمام أول ما رآه عنده، أمسك يده لم يُفلِتها، يكاد ينحني عليها ليُقبِّلها!

تعجَّب الإمام منه، يحاول أن يتذكَّر ما قدَّم له بالأمس.. لا شيء!

لا يتذكر أنه فعل أكثر من أن أخذَهُ من يده وخرج به من طاحونة الانتقام، كيف فعلها؟ لا يذكر، لكن يبدو أن الشاب يفعل، ألحَّ عليه أن يبقى، ولَمَّا كانت قدم الإمام تئن أنين الوهَن؛ رضيَ أن يرتاح عنده قليلًا، همَّ ليجلس بجانب الفتى على حصيرةٍ لكن الأخير أوقفه، سريعًا رفع الحصيرة عن الأرض ونظفها، أخرج قطعة قماش من جيبه ومسحها بها ثُمَّ تأكَّد أنَّ الأرض لا يتجمع فوقها أيُّ حصًى أو كسر طوب، لما اطمأن لكل هذا؛ فرش الحصيرة وأجلس فوقها الإمام وجلس هو على الأرض بجانبها!

ازداد اندهاش الإمام به أكثر وأكثر، ما زال يتذكر.. لم يفعل له شيئًا، الذاكرة ليست مُعطَّلة.. هو حقًا لم يقدِّم له أيُّ شيء، يُقلِّب الفتى الذرة على الفحم، يُمسِك واحدة بين يديه، ينظر إليها، ثُم يعيدها إلى الفحم بعدما وجدها لا تَرقى لما يريد،

ينظر بين الدقيقة والأخرى إلى الإمام وهو يمدُ يده تجاه الفحم ليستدفئ، يبتسم في نفسه.. يشعر بالفخرِ، أمسك أخيرًا واحدةً جعلَت عيناه تلمع من السعادة، قَدَّمها إلى الإمام بلهفةٍ وقال:

- هذه السُكَّر سَتُعجبُك أكيد.

ضحك الإمام من ثقتهِ بنفسه وهو يقدمها له، تلقَّفها منه وقد كانت سخونتها تمنعه من إمساكها جيدًا؛ فقذفها إلى ملابسه، ضحك الاثنان على حالهما، كالأطفال كانا، سأله:

- ما دمتَ تعمل وتجد رزقًا من وراء هذا، فلماذا سرقت البيض؟!

نظر الفتى له بخجلٍ وقال:

- ستصدقني؟

- مؤكد.

- أنا لم أسرق البيض، أنا كنتُ قادمًا لأشتري منها، اقتربتُ من حائطهم وكان البيض داخل صحن أبيض موضوع بالأرض، ولما كان البيض والصحن نفس اللون؛ لم أره.. فكسرته.

- ولماذا قالوا أنَّك سرقته؟!

- لأنها خرجت تصرخ وتقول.. «البيض، البيض»، فأقبل الناس ولم يهتم أحد بما حدث حقًا!

كانت القصة غير مقنعة، لكن الإمام وعده أن يصدقه؛ فسأله:

- ولماذا حينما جئتُ المجلس لم تخبرني أنَّك لم تسرق، وأن الأمر به سوء فهم؟

نظر له الشاب نظرةً تحمل ابتسامةً مكسورة وقال:

- ولماذا ستصدقني؟! إن كان أهلي.. أهل البلد أنفسهم لم يرضوا أن يسمعوا.. فهل كنتَ لتفعل أنت!

كنتُ دائمًا أجلسُ وأسمع الروايات، كل الروايات السيئة، أنت بطلها! والروايات الطيبة!!

أنت الوجه السيء فيها بلا شك، لكنها رواية طيبة، ولا مجال لذكر الأشرار؛ فأسقطوك لأن النصّ لا يحتمل!

لم أصدق يومًا أن هناك شرٌ محض، وخير محض!

كلنا يحمل الوجهين، لكن.. بعضنا يتملك منه خيره فلا يقوى على شر، والآخر يملكه شره فلا يقوى على خير.

ويوم القيامة نصرة للكاظمين!

سمعتُ كثيرًا جملة تُقال من باب النكتة.. «أنا السيء في رواية الجميع»، كنتُ أقول مواسيًا.. «احك أنت روايتك.. رغم أنف الجميع»

لكني يومًا.. أدركتُ أن الحياة ليست مجالًا للعيش فيها بدور المدافع دائمًا!

جهدٌ فوق العادة، أن تحيا فقط للتبرير والإيضاح، ولمن؟!

للقريب والغريب! وهيهات هيهات.. أن يصدقوك!

فقلتُ.. ابتعد إذًا عن موطن الشك، وكلما فُتح باب قد يحمل ريبة، عليك أن تغلقه.

ولازالت روايات الجميع تستمر، صوتها عال، ضحيجها مؤسف، وجمهورها.. هم نفس الأشخاص دائمًا!!!

أعتقد أن أكثر فكرة بائسة قد مرت عليّ بحياتي.. « أن الناس ميزان «، هم ميزان حقًا، لكن مثقاله ما في القلب، فمن يراك بقلبه.. وقلبه يستطيبك؛ طيّبك!

ومن كان قلبه يستحقرك؛ حقّرك، ومن..... ومن.....

مؤلمة جدًا هذه المعرفة التي ترهق القلب، على مدار سنوات تجمع في فهمك، وتفكيرك ما يدفعك في النهاية للحظة من الصدق.. تصفعك!

تكتشف أخيرًا أن.. « وقلبه مطمئن بالإيمان»

هذه قاعدة عامة في كل شيء، يطمئنك أن الله معك، يعرف الرواية الحقيقية، شاهدٌ على صدقها، وتمام خيرها؛ إذًا.. تعسًا تعسًا لرواياتهم.

كان الإمام يستمع إليه وعيناه ما زالت مُعلَّقة على ابتسامته المكسورة!

لأول مرة يجد هذا المعنى في ابتسامة، تُشبه كثيرًا ما يُحكى عن القلب المكسور، هذا الألم الذي ينتج من كسر وتمزق وليس مجرد جرح، ها هو يرى ابتسامة تكاد تكون الأوجع على الإطلاق!

أن يجدَ شابًا ترتسم على شفتيه ابتسامة مثلها؛ يدفعه هذا ليسأله بكل ما أوتى من قلب.. «ماذا صنعَت بك الدنيا يا فتى؟»

قال الإمام بيقين تام:

- إذًا لم تسرق.

وباعتزاز شديد أجاب الشاب:

- لا أفعل أبدًا.

التمعت عيناه، هذه العبرة.. هي الإيمان، أنَّك لست وحدك، أحدهم يُصدقه، أحدهم يؤمن أنَّه لم يفعل، حقًا قد تقوم سعادة إنسان كاملةً بأن يؤمن به شخص واحد، وقد تتهدَّم روح إنسان كذلك.. بكلمة يلفظها شخص واحد!

وعلى الرُغمِ من كل هذا.. يبخل الإنسان!

- صدقتَ، طعمها ألذ مما توقعت.

- كنتُ واثقًا.

فجأة تبدد ألم قدمه، والتأم جرحٌ قديم في صدره، حتى ضعف عضلة قلبه.. تكاد تكون متزنة الآن!

هكذا تعامل جسد الإمام مع دفء الشاب ورفقته، من يمرّ عليهما يجد صاحبان اجتمعَت عليهما هموم الدنيا، واجتمعَت عندهما سعادتها كذلك، فالضحكة التي تخرج من القلب لا تُفرِّق بين فؤادٍ سعيدٍ أو حزين، الضحكة فقط.. تدوِّي، تحكي، تحمي من السنين والأزمات، والشيخوخة.

أمامهما وقفَت «شيماء» مُبتسمةً وقد جذبها صوتهما، عرَفَت الإمام من ضحكته، ثُمَّ عرفت الشاب من غضبته، بمجرَّدِ أن انتبهَت إليه تبددت ابتسامتها، وحلَّ محلَّها الخوف والحرج، انتبه الإمام للشعورين، انتبه لهما جدًا وقد تنافسا على صفحة وجهها.. كلاهما يصرخان حضورًا، بدا أن الشاب يرفض وقوفها أمامهم، وهي كذلك تهمّ بالرحيل فورًا، لكن الإمام لم يسمح لها بذلك، فوقف بجانبها وقال مرحبًا:

- «شام» الحبيبة، أراكِ مرتين بنفس اليوم، يا لرزقي!

أشارت بيدها له مودعةً لكنه قال سريعًا:

- لا لا، انتظري، فهذا الشاب لديه اعتذار لكِ.

نظر له الشاب بغيظٍ وهمس من بين أسنانه:

- لماذا أعتذر؟ قلتُ لك لم أسرق.

لكن الإمام غمز له غمزةً أسكتته، وقال:

- لا أحد يعيش بلا خطأ، والإنسان حقًا من يعرف هذا ويتقبله، أليس كذلك يا «شام»؟

ترتعش كعصفورٍ مبتلٍ همست:

- بلى، لكن...

قاطعها الإمام:

- لكنكِ لم تقصدي أن يحدث كل هذا!

بدأت بالبكاء وهي تُخفي وجهها بحجابها وتحكي:

- لم أقصد أبدًا، أنا خرجت واكتشفت أن كل البيض تكسَّر، فصرختُ على البيض لا على الشاب، أنا حتى لم أنتبه لوجوده، أنا صرخت وفقط.

زاد نحيبها وهي تكمل:

- لكن الناس فجأة تجمعوا عليه، لا أدري من أين خرجوا؟ أو لماذا فعلوا ما فعلوا؟ أعتقد لو كان بيتنا يحترق لما حضروا بكل هذا العدد، ولا أظهروا كل هذا الاهتمام!

أشفق الشاب عليها من جلدها لذاتها، أما الإمام فكان في الليلة الماضية يرى في الشاب فرصةً قد يستغلها، أما الآن فيري فيه خيرًا قد ينفعه؛ لذا اقترب منه وهمس بأذنه:

- تذكر حينما قلتُ لك أني سأطلب منك ردَّ الجميل؟

نظر الشاب بحذرٍ وحرَّك رأسه مُجيبًا ب «نعم»، فقال الإمام وهو يشير إلى «شام»:

- سامح هذه.

بتعجبٍ سأله الشاب:

- هذا هو الجميل؟!

فأكَّد الإمام قائلًا:

- وهو أجمل مما كنتُ أتخيَّل وأرجو.

نقل الشاب نظره بين «شام» والإمام، ثوانٍ حتى بدأ يقلِّب في الذرة المشوية حتى وجد اثنتين وقد نضجتا، فرفعهما ولفهما ببعض الورق وقدمهما إلى «شام»، والتي مع سعادتها بالذرة المشوية فتحت كيسًا كان بيدها وأخرجَت منه بيضتين وقدمتهما إلى الشاب، والذي حاول الرفض لكنها هتفت:

- و«ربُّنا الجبَّار» ما ترجعهم.

نظر إليها بدهشة من قَسَمِهَا لكنه استسلم على أي حال؛ فأخذهما منها ولفَّهما ببعض الورق من حوله، وحفظهما بعيدًا عن كل ما قد يكسرهما.

مضَت بعدها الفتاة إلى مكان سكنها وقد اكتسبت صديقًا، وأنهت عداوة، أمَّا الإمام فقد ذهب عنه ألم وحلَّ محله همٌ وغَمٌّ؛ فقام مودعًا الشاب، مُسلِّمًا عليه، هامسًا في أذنه:

– فخورٌ أن تلاقت طرقنا وعرفتُك، لستَ سيئًا أبدًا يا فتى.. لستَ سيئًا على الإطلاق.

قالها ومضى في طريقه حتى يصل إلى الجامع الكبير، يسير سيرًا واثقًا من كلِّ شيء.. إلا نفسه، لا يخشى غير نفسه بعد الآن.

❊❊❊

الساعة السادسة

بدأت الأقدام تقل من حوله، بعدما كانت الرفقة التي يعرفها ولا يعرفها تؤنسه في الطريق.. صار لا أحد معه، خطواته ما زالت شابةً لم تضعفها مشقة السير ولا طول الجهد، الليل حاضرٌ منذ كثير، يرفع رأسه للسماء، تمتلئ نجومًا.. كأنَّما هو الرجل الوحيد الذي يسير الآن تحت صمت الليل، عباءة من الظلام ممدودة بطول البصر، لا يكاد يرى شيئًا ليتأكَّد من أنه يسير على الطريق الصحيح، فقط كلَّما طالت الأرض وامتد السواد؛ تيقن أنَّه قد اقترب!

خطواتٌ هي الأولى التي يسمعها، ثلاث أقدام أم ستة!

خطوة.. خطوة.. وضربـة، خطوة.. خطوة.. وضربة بعكاز، دقيقة وظهر سوادان في هذا الظلام، تكشَّف بعد دقيقة أنهما لرجلٍ وامرأة، يسيران بتُؤَدَة، يتلكآن على صفحة الأرض كأنَّما خُطت مشيتهما بريشة فنان، يقترب منهما، أو يقتربان هما منه، لا يخشى شيئًا، بهما أُنْسٌ يكاد يشمه..

ما هذا.. وهل الأُنس يُشَم؟!

تلاقت الخطوات أخيرًا، الرجل شيخٌ كبير، والمرأة عجوزٌ، وقفا عنده يبتسمان له كأنَّهما يعرفانه، استدفأ بهما وسأل:

- إلى أين وهذا الجو بارد؟!

أجاب الشيخ الكبير بهدوءٍ:

- إلى هناك، حيث نجلس والقمر.

رفع الإمام رأسه إلى السماء، كان القمر بعيدًا في الشمال، عاد بعينه إليهما، وبفضولٍ قال:

- الليل طويل والقمر لن يذهب لأي مكان، لِمَ لا تعودان لبيتكما فالجو بارد وجسدكما لن يحتمل؟

نظر لها الرجل بشيء من الرجاء أن تسمع كلام الإمام، فاعترضَت بقوة:

- لكنها المرة الوحيدة التي ألقاك فيها!

كانت إجابتها غامضة بما يكفي لتدفع الإمام أن يظل منتظرًا منهما حديثًا يُفهمه الذي يجري، أما هما فقد أمسك الرجل كَفَّ المرأة وأكملا السير بلا اهتمام يُذكَر بالإمام.

مُتعجِّبًا ظلَّ يتبعهما، لا يعرف هل طريقهما واحد أم أن الطرق حقًا تتلاقى؟!

كانت تأتي همهمات بينهما، يتبعها ضحك قوي، ثُمَّ صمتٌ، فهمهمات، فضحك، وذراع الرجل تلتف حول كتف المرأة، فتشعر كأنَّ المكان من حولك يزداد سخونة، كأنَّ كتفك أنت الملتَف حوله!

اقترب منهما، يتبعهما، فقد بدا واضحًا أنهما يعرفان الطريق، ويعرفان بعضهما، ويحتملان كل هذه المشقة.. ويتحابان!

يتأخر عنهما خطوة، ما زال يشم الأُنس منهما، كان عجيبًا سيرهما، نفس الخطوات، ذات النغم، كلاهما طولٌ واحد، عرضٌ واحد، ريحٌ واحد!

اقترب منهما في النهاية وسار بجانب الشيخ الكبير وقال:

- ألم يتأخر الوقت للتمشية؟

مدَّ الرجل يده حيث يدها، وضمَّها ضَمَّة محبٍ، أصابعه ترتعش، لا تعرف من السن أم من البرد!

- «روح الروح» تُحب التمشية.

- وأنت يا شيخ؟

- أنا أُحبُّ ما تُحبُّ هي.

كان وجهها يزداد خجلًا، وهو بها يزداد فخرًا، يصيب الرجل سعال؛ فيقف ليلتقط أنفاسه ويسعل بشدة، تضع هي يدها على ظهره تمسح عليه برِقَّة، تمرر يدها على كتفهِ ورأسهِ.. كأنَّها وجدتها حُجَّة لتتحسس وجهه، يسألها بحنوٍ:

- كبرت ووجهي...

فتمدّ يدها المرتعشة كذلك إلى شفتيه وتغلقهما هامسةً:

- حتى الكبر جميل عليك يا حِـبُّ.

يحمر هو من قولها خجلًا، ويزداد الإمام إحراجًا من وجوده بينهما، تنتهي نوبة السعال على خيرٍ ويعودان للسيرِ، يلتفت تجاه الرجل ويسأله باهتمام:

- هذا طريق المسجد.. أكيد؟

فينظر له الرجل ويقول:

- ما دمتَ تريد الوصول إليه؛ ستصل، فهذا مسجدٌ يُحبُّ أهله.

انتبه الإمام أن عينا الرجل غريبة جدًا، واحدة زرقاء والأخرى خضراء، ابتسم.. وابتسم له الشيخ قائلًا:

- صنع الله الجميل.

سأل الإمام:

- هل المسجد بعيد؟

- نصل حينما يأذن الله.

- أنتما ذاهبان إلى هناك؟

- نسكن هناك.

كانت المرأة تسير بهدوءٍ وتدندن شيئًا، نغمٌ يصل للأذن فيطربها لكن لا تكاد تفهمه، ناداها عاتبًا:

- يسمع الهواء لحنكِ ولا أسمعه!

فتخجل.. وتخجل، وتستمر بسيرها، يميل الشيخ على الإمام ويهمس له:

- رُزقتُ حُبَّها.

يسأله الإمام بلطافةٍ:

– أليس هذا ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم عن عائشة رضي الله عنها!

– وهذه عائشة قلبي، يا عائشـ..

– نعم يا حِـبُّ!

ابتسم الشيخ منتشيًا راضيًا، والإمام ينظر لهما باستمتاع لا تكاد تعرف منه إلا أنَّه قد نسي ما ملأ قلبه من همٍ، وما تسلَّط عليه قبلُ من غمٍ، وظلَّ ينقل بصره بينهما في شيء من السعادة بهما، يقول للشيخ:

– كم مضى على زواجكما؟

– لا أعلم، لم أحسب، هذه المرأة عرَّفتني على الجنَّة.

ومن بعيدٍ أتى صوتها متممةً:

– وأنتَ أدخلتني فيها.

هذا الدفء الذي يسري في صدره لم يعهده من قبل، هذه السعادة لحال الآخر.. تملأ جوارحه وتُنسيه كل شيء، كيف يحدث له هذا؟!

هو فقط يريد أن يسمع منه عنها، وأن يسمع عنها منه،

وتعسًا تعسًا للحياة بعدها!

قطع تفكيره صوت الشيخ وهو يسأله:

- لماذا تريد الذهاب للمسجد؟

- أنا الإمام.

علَّق الشيخ على رده عاتبًا:

- حينما تُجيب هذا السؤال؛ تجيبه وأنت مرفوع الرأس، منتصب القامة، فأنت صلة الناس بالله، أنت من تعرفهم به وتقرّبهم منه.

تنحنح الإمام بحرجٍ وهو يوضح:

- وصلتُ بالأمس، والحقيقة أني من أول اليوم أحاول الوصول لكني لا أُفلِح في هذا، تُعطلني كل مرة أمور.

- المهم أن تستمر في المحاولة، فالمساجد بصفة خاصة تحفظ أهلها.

نظر له الإمام بتعجبٍ؛ فأضاف الشيخ الكبير:

- ألا تدري ما تصنع المساجد؟!

تدخل من بابها.. ضيفٌ أنتَ عند المَلِك، وصحبة المسجد، ثُمَّ لا تملك من نَفسِك إلّا أنفاسك،

أمّا جوارحك.. فـيدك.. تُعانَق كلّ دقيقة، ووجهك يُقبَّل كلّ دقيقة، وشفتاك تبتسم كلّ دقيقة،

فلا تذكر متى أُخِذت كلّك بتلك الطريقة وامتلأت لهذا الحدّ، وكأنّ أحدًا من الجنّةِ بخَّ ساعة من نعيمها في صدرِك..!

كان وجه الإمام يزداد توهجًا، أما المرأة فقد اقتربت منهما وهمست لزوجها:

- قدمي آلمتني يا حِـبُّ.

- أحملك يا روح الروح.

ابتسمت له وهي تضربه في كتفه وتهمس:

- تعال نرتاح.

نظر الشيخ إلى الإمام؛ فوجد الأخير يتفهَّم منهما هذا التعب وضرورة الراحة، فأقبل إلى جانب الطريق وجلس، ترتاح المرأة على مكانٍ عالٍ قليلًا، أما الرجل فقد جلس على حجرٍ أقل منها بعض الشيء، مدَّ يده حيث قدمها ثُمَّ رفعها إليه وبدأ في

تدليكها، كانت تتألم في صمتٍ، تكتم آهاتها، وكلَّما نفدت منها آهة ألم؛ همس بها الشيخ معاتبًا عتاب المحبين:

- انتبهي يا روح الروح، فأنا أغار.

فكانت تضع يدها على فمها لتكتم صوتها، كطفلةٍ صغيرة تخشى أن يحزن منها حبيبها!

نادى الشيخ على الإمام:

- تعال يا ولدي، لا تجلس وحدك.

اقترب الإمام ممتنًا، قال الشيخ:

- الطريق للمسجد متعب وطويل، لكن هل تعلم أنَّه سيشهد لنا يوم القيامة أننا مشينا به من أجل الصلاة.

تبددت الابتسامة التي كانت تملأ وجه الإمام، تذكَّر شيئًا كان يحاول أن ينساه، انتبه الشيخ لتغيُّر ملامحه، سأله عن ما يشغله، لكن الأول قال هو التعب لا أكثر، وبعد إلحاحٍ قال الإمام:

- هل كما ستشهد الطرقات لمن سار فيها إلى المسجد.. ستشهد عن من سار إلى غير ذلك؟

فقال الشيخ:

- ستشهد بكل شيء يا بني.

سأل الإمام مستفهمًا:

- الخير والشر؟

فأكَّد الشيخ:

- كل الخير.. وكل الشر.

لم تكن الإجابة مطمئنة، بل كانت أكثر فتكًا بروحه وهزيمةً لها، يسأله الشيخ:

- هل أزعجك الناس هنا يا ولدي؟

نظر له الإمام باستغراب، فقال الشيخ:

- لن أستغرب لو فعلوا، فهذه القرية ظالمٌ أهلُها.

طأطأ الإمام رأسه أرضًا، فأكمل الشيخ:

- الناس هنا كانوا على خيرٍ فيما مضى، كان الواحد منهم يُحسِن ولا ينتظر من غيرهِ إحسانًا، أو رده، وسمعتُ يومًا قصةً يحكون أنها حدثت هنا.. في يوم كان واحد من أهل القرية يصنع إطعامًا لولادة زوجته، وكان يضع لكل واحدٍ نصيبه من الأرز

واللحم في رغيف من الخبز، أحسَّ الرجل صاحب الإطعام أن اللحم قليل ولن يكفي الجميع؛ فاختار بعض أهله والقريبين منه وأعطاهم الخبز بلا لحم، وفي ظنه أن هؤلاء هم الذين سيسترون عليه قلَّة الطعام ولا يكشفون حقيقة الأمر، حتى لا ينفضح بين الناس، ولا يكتشف أحد أن اللحم قد انتهى.

نظر له الإمام متلهفًا لآخر القصة، أكمل الشيخ:

- حينها التفت واحد من أهل الرجل وردَّ إليه الرغيف وقال لصاحب الإطعام أمام الجميع.. «أين اللحم؟»، هُنالِك خجل الرجل وهو يستعيد منه الرغيف ويقول معتذرًا.. «حسبتك من أهلي!»

بانت على وجه الإمام خيبة الأمل في الرجل جدًا، أكمل الشيخ:

- الحقيقة أنه من هذا الوقت.. توقف الناس عن أن يكونوا أهلًا لبعض، كل من يرى أن مساعدة أحد ستكلفه مال أو وقت أو جهد، ويجد أن من يأتِ ليسأله يهمس له في بداية كلامه مثلًا.. «أحتاج لخدمة منك؛ فأنت من أهلي»،

فيأتِ الرد سريعًا ومحبِطًا.. «أنا لستُ من أهلك»، ومن وقتها انتشرت القسوة بينهم، ولم يعد هناك من راجعٍ ولا رادعٍ

للناس هنا.

أخذ الإمام نفسًا طويلًا وكأنَّما يعتمل برأسهِ الكثير من الأسى على نفسهِ وعلى الناس، قام من مكانه وقد انتبه أخيرًا لأضواءٍ قريبة يكاد يُقسم أنها لم تكن هناك من قبل، سأل عليها الشيخ؛ فأجابه:

– هذا هو المسجد الكبير يا بني، أخبرتُك أننا سنصل حينما يأذن الله.

قام الإمام من مكانهِ والتفت لزوجة الشيخ داعيًا لها بالبركة والخير، ثُمَّ انحنى حتى وصل لرأس الشيخ الكبير وقبَّلها..

وجد في تقبيله ريحًا طيبةً لم يشمها أبدًا من قبل، سأل عليها الشيخ فقال هي هدية ولا يعرف أصلها، سلَّم عليهما سلامًا راضيًا مطمئنًا، ومشى يجره الضوء القادم من المسجد..

لأول مرةٍ يشعر أن شيئًا يستدعيه، يستجلب حضوره، لا يدري أيهما يحتاج الوقوف أمام الآخر!

لا يعرف لماذا هو متأثرٌ كل هذا التأثر، مأخوذ بكل هذه الأحداث، لا يعرف!

***

ساعة الفجر

لأولِ مرةٍ يرى إضاءةً لمسجدٍ بهذا الجمال!

النور يأخذ بقلبهِ حيث لا يستطيع أن يرد شيئًا من الأخذ، كلُّ ما فيه يتبع الضوء لا محالة، إلا الهمّ.. يقبع في صدره لا ينفك عنه، وقف أمام سُلَّمِ المسجد.. يطأطئ رأسه في خجلٍ مصحوبٍ بالأسى، تضيق عليه نفسه والدنيا، يشعر بالزيفِ.. كلُّ الزيف وهو يتذكَّر كم من موضعٍ نظروا له فيه بوقارٍ وهو فيه من الخائنين!

هذا سمعه، وهذا فتح له قلبه، وهذا رضيَ بحكمهِ، وهذا أخذ بكلمته، وهذا.. وهذا...!

وهو الوحيد الذي يعلَم حقيقة ما جاء لأجله، وما تحمله نفسه عليه، حتى الصلاة لم يفعلها!

منذ أن قام من نومته ولم يصلِّ لله ركعة، لمعَت عيناه.. يشتاق للصلاة، للبكاء، للأملِ، رفع رأسه للأعلى، بينه وبين

باب المسجد درجات، وباب الله دومًا مفتوح.

كان يصعد درجات السلم في لهفٍ، ثُمَّ وفي المنتصف تمامًا سقط أرضًا لا يقوى على الصعود، حتى الحركة لا تحتمله نفسه عليها ولا تطيعه عظامه، توجَّع بقلبهِ وجعًا وحده يعلمه، هذا باب الله لا يريدك، لا يقبلك!

تتملكه ذكريات اليوم..

يغمض عيناه ويتذكَّر، كيف ينجو من نفسه ومن الناس وقد سمح لهم أن يتسلَّطوا على حياته وأن تكون لهم يد الأمر.. كيف!

فجأةً يرفع عيناه إلى السلم يجد ما تبقى منه هو ست درجات، يعتدل ويفكِّر في رأسه.. هم ست ساعات، ست مواقف، يحاول مرةً أخيرةً القيام؛ فلا يقوى، كأنه تسلسل بسلسلة من عمله.. عمل السوء، ولا راد له إلا الله.

يعتدل في جلسته على السلم ما استطاع، يُغمِض عينه، يتذكَّر كيف وقف أمام الشاب وقد اجتمع الناس عليه ليضربوه، همَّ بالذهاب، لم يهتم، هكذا اعتاد حياته دومًا.. أن لا يهتم!

يستحضر ذاكرته حجرًا حجرًا، يعلم أيُّ اللحظات خير، فجأة يتوقف عندها..

كانت نظرة الرعب بعين الشاب متبوعة بالرجاء هي التي زلزلته، قد كان في نفس الموضع من أيام، وقد تمنَّى حينها لو يرحمه أحدٌ من الناس، وها هي الأيام تدفعه لنفس الحال، لا يُنكِر أنه كما اعتاد لم يكن ليتوقف.. لولا أن نفسه انتبهَت لما في أيام الله من تبدّل أحوال.

وقف هنا..

عند هذا المعنى تحديدًا..

أغلق عيناه بقوةٍ، همس بشفتين خجلتين:

- يا رب وحدك تعلَم أني ما وقفتُ إلا لأجل الشاب، وأنا الذي لم يكن ليقف لأحدٍ أبدًا مهما ترجى.

ثُمَّ فتح عينه وحاول الحركة، فكأن ظهره مقسوم نصفين، ما زال لا يقوى!

زفر بقوة، كان يعلم قصة الثلاثة الذي أُغلِق عليهم باب الكهف، وكيف تشفَّع كل واحد منهم بعمل صالحٍ صادقٍ،

فكشف الله عنهم الغمَّة، فلماذا لا يقبله الله؟!

صرخ بها بقوة:

- لماذا لا تقبلني كما قبلتهم من قبل؟

لماذا أنا تُغلَق دومًا أمامي الأبواب؟!

- لأنَّه ليس لزامًا على الله أن يقبلك.

أتت الكلمات من أسفل السلم، كان العامل «ابن الأسيوطي»، يقف ممسكًا مفاتيح المسجد، ينظر للإمام بشيء من الغضب والشفقة في آن واحد، فامتلأ صدر الأخير حرجًا مما سمعه الأول، لكن العامل تحرَّك حينها مباشرة على درجات السلم صاعدًا، لم يتوقف عند الإمام ولا حتى ليساعده، مضى في صعوده غير مكترثٍ!

هاهُنا بدأت العبرات تتجمع بعينِ الإمام، لا يدري أين المخرج؟

ولا يعرف من الحياة غير أنها لن ترحمه، لكن دومًا كان يرجو أن رحمة الله به أولى، ظل يرددها في نفسه.. «رحمة الله بي أولى»، عاد فأغمض عيناه، لم يستطع إيقاف دمعه وهو يهمس:

- يا رب لولا رحمتك بي من قبل لما كانت رحمتي بالشاب، فارحمني!

رددها كثيرًا وهو يزحف على السلم زحفًا متسلقًا حتى انتقل أخيرًا من درجةٍ لأخرى، فاعتدل يلملم في صدره أنفاسه، ويحمد الله أن أعانَه، فلولا العون ما كانَ.

رفع رأسه ينظر أين «ابن الأسيوطي»، فلم يجده عند باب المسجد، عاد لحاله، يخترق أحجار ذاكرته حجرًا حجرًا، يقف عند «شام»، تلك الكسرة من طفلة، هذه الرِقَّة.. كلُّ الرِقَّة، لَمَّا اصطنع معها الدهشة، ولَمَّا انتظر منها الضحكة، هاهُنا غلبته دموع الأسى، حدَّث الله في همسٍ متألم:

- يا رب، كلِّي لك يا رب، تشهد وحدك على صدق قلبي، وهذه البنت ما كنتُ لأضحكها لولاك! وما كنتُ لأحدثها لولاك! وما أخرج الكلم من صدري لولاك! فيا ربّنا الجبَّار؛ اجبرني، فوعزتك وجلالك ما علمتُ الجبر إلا منها، وما علمته هي إلا منك سبحانك!

لا تزال دموعه تهبط إلى صدره وهو يمد يده إلى الدرجة التي بعدها فيهمَّ عليها همَّةً واحدة، ويقول «بسم الله»، فيطيعه

جسده، ويتحرك بقدرِ الله ويستقرّ عليها استقرارًا هادئًا مطمئنًا.

في مثل هذا يطير القلب من فرحٍ، فالله أقرب مما كان يتخيل، هذا أوان الصدق والإيمان، أن تتكلم وأنت على يقين أن الله يسمعك، أن الله يراك، أن الله يرحمك!

طابت نفسه أن يُحدِّث الله عن حاله، وهو الذي لا يدري كيف تخبر صاحب الأحوال.. بحالك، وهو يعلمه!

لكن لطالما عرف أُناسًا قالوا له.. «حدِّث الله عن همومك؛ فليس لها غيره»

الآن يُجرِّب كلّ شيء، فهنا القوم يعرفون الله من كلمة، أما هو فيعرف كلمات الله ولا يعرف الله، تعسًا له.. تعسًا!

بقيت أربع درجات، يعلم أن بينه وبين الله هذا اليوم أربع وقفات ستشهد له، أسند ظهره إلى جانب السلم وضمَّ يده إلى صدره كأنَّما يُمسِك قلبه فلا يتفلَّت منه أو يميل، قال هامسًا:

- دخلتُ أرضَ الأسيوطي بقلبٍ لا يعلمه إلا أنت، وخرجتُ بقلبٍ لم يغيره إلا أنت!

قابلتُ بائع الذرة ولا يعلم ما في نفسي غيرك، ولَّما تغيَّر ما في نفسي لم يشهد على ذلك غيرك!

سرتُ مع العجوز والشيخ وأنا الذي لا يُحسِن إلى كبير ولا يُشفِق على صغير؛ فما أصلحني إلا أنت!

تهدَّج صدره واختنق صوته، وامتلأت عيناه وهو يُكمل:

- تأذن لي برضاك يا رب، تأذن لي برضاك!

مسح عبراته بطرف كمه ثُمَّ قام من مكانهِ واقفًا، على درجات السلم الباقية كان يضع قدمًا أمام أُخرى.. ويحمد الله!

بجانب السلم كان يجلس أرضًا «ابن الأسيوطي»، رفع رأسه حيث الإمام، نظر له نظرة حيرة أولًا ثُمَّ أشار له أن يجلس جانبه وهو يسأل:

- من أنتَ حقًا وماذا تفعل هنا؟

كان وجه الإمام هادئًا صادقًا، كأن لا شيء يخيفه بعد الآن، قال بثقةٍ:

- أتوضأ وأصلِّي وأعود إليك.

فهبَّ العامل واقفًا بغضبٍ:

- والله لن تدخل المسجد حتى أعرف قصتك.

فنظر له الإمام معترضًا لكن قال موضحًا:

- إذًا أتوضأ من هذه الزجاجة وأصلي هنا.

كان بجانب العامل زجاجة مياه قد أتى بها الأخير معه؛ فأخذها الإمام فورًا وتوضأ بها غير منتظرًا لردٍ أو منع، يأخذ الماء بين كِفَّيهِ، ويصبُّه على وجهه ثُمَّ يعود ليديه، يغسله هذا الوضوء غسلًا، كأَنَّما يصبُّ على روحهِ لا على جلده، فيبكي الإمام مع نزول الماء، ويبكي مع انتهائه!

وقف ليصلي؛ كبَّر، فكان الله من ألمِهِ أكبَر، هذا الغضب داخله، هذه الجمرة التي تأخذ كل روحه الباردة وتجعلها رمادًا، تخمد الآن الآن.. بين يدي الله، لأول مرة من زمنٍ يشعر بنبضهِ، وهو الذي كان يحسب قلبه قد مات!

ركعة يقومها فيقوم معه قلبه، ويسجد فيألم أن كيف حرم نفسه كل هذا الحرمان؟!

صلى صلواته الخمس، بكى الصلوات الضائعات منه كلها، بكى نفسه، ووجعه الذي لا ينفد، الآن وقد انتهى من صلاته،

جلس وجُمِعَت بجانبه أحزانه، نظر بجانبه، حضر طيف يجاوره، يعرفه هو، يكاد يمد يده فيصل إليه، يعرف جيدًا أنه حضر، لأنَّ له رائحة المسك، لطالما كان له رائحة المسك!

أخرجه العامل من أفكاره زاعقًا:

- تكلَّم يا رجل.

التفت الإمام إليه وقد امتلأت عيناه بالألم، قال:

- جئتُ لأجلك، أنتَ فقط سبب مجيئي.

لم يفهم العامل شيئًا؛ أكمل الإمام:

- جئتُ لأنك أنت ابن الأسيوطي، صاحب مزرعة الحشيش الوحيدة هنا.

رفع العامل حاجبه تهكمًا وقال:

- أخبرني شيئًا لا أعرفه، فأنا أعلم أنك جئتَ لأجل الحشيش، ما الجديد الآن؟

- أنا لم آتِ لأجل الحشيش، بل لأجلك، أنت وفقط.

- لكنك لم تعرفني لمَّا رأيتني!

– سمعتُ عنك.. لكن لم أعرفك، عرفتُ أن لك أخ طفل صغير، وأنت الكبير.

– وماذا أردتَ من ابن الأسيوطي؟

لمعَت عينا الإمام بالغضب وهو يصيح:

– أن أحرم «الأسيوطي» منه.

سكت العامل وسكت الإمام، وما زال الطيف يجلس بجانب الأخير، هاهُنا مدَّ الإمام يده حقًا هذه المرة، كأنَّما يمررها على رأسٍ صغيرٍ يجلس عنده!

جحظت عينا العامل وهو يرى الإمام ويده تتحرَّك في الهواء كأنَّما يتحسس شبحًا، لمح الأخير فزعة الأول فابتسم وقال:

– لا تخف، أعلم أن هذا جنون وأنني أتخيَّل، لكن ما حيلتي وهو فرصتي الوحيدة لأراه، ابني الذي مات بسبب والدك.

كانت دقيقة من السكوت تنزل على كلاهما، قاطعها الإمام بعدما مدَّ يده وحمل طيف ابنه على ذراعه يهدهده، ينظر إليه ويبتسم، يبكي.. ويبتسم، يقول بين الحالين:

– دفنت ابني بيديَّ وكان الواجب أن يكبر حتى يدفنني

هو، فأيُّ ظلمٍ أوقعتم بي وبه؟!

لم يعد بإمكان العامل أن يرد، قال الإمام:

- كانت أمه عائدة به من الحضانة، وأتى سائق بسرعة وصدمها وهو على يدها، سائق يعمل في مزرعة والدك ويحمل شحنة الحشيش، المشكلة أنه رفض نقلهما للمشفى، الطبيب يقول أن حالهما كان يمكن.....

لم يستطع أن يُكمل، فسعل بقوة ودموعه تسيل سيلًا موجعًا، عاد ليكمل:

- لماذا تفعلون هذا؟ لماذا تدمرون كل شيء؟!

أنا رجلٌ لم يفعل يومًا ما يُخالف القانون، لا أنا ولا أبي ولا أمي ولا أهلي، لماذا أعيش بعالمٍ تعيشون أنتم به؟

لماذا أتينا جميعًا في هذا الزمان حيث السيارات والنباتات الغريبة؟

لماذا كنتُ بهذه البلد معكم؟

لماذا ابني أنا؟

لماذا زوجتي أنا؟

لماذا؟ لماذا؟

الكثير من الأسئلة، حتى الله.. حتى هو، خسرتُ بسببكم كل شيء، ابني وزوجتي وبيتي وعملي.. حتى إيماني!

بعد هذه الكلمات تكوَّم أرضًا لا يدري كيف تقوم له قائمة!

سكت طويلًا حتى هدأ نفسه، هنا قال العامل بصوت هادئ:

- وما الذي أوقفك عن الانتقام؟

اعتدل وأجاب بغيظٍ:

- هذه القرية، بها شيء غريب، كل كلمة تلقى أذنًا، وتنزل على قلبٍ، اضطررت لأتكلَّم كلامًا كنتُ غادرته من شهور، وأشعر بأمورٍ قد دفنتها، وأنت...

نظر له العامل باستفهامٍ:

- وأنا ماذا؟

- أنت نفسك سببت لي مشكلة، حتى أنتَ عدو والدك، فكيف أتصرَّف أنا؟!

كيف أنتقم وأهدأ، كيف أعود لبلدي ولعملي.. كيف؟!

أتعرف كم وقتًا استغرقتُ في جمع المعلومات لأعرف فقط البلدة واسم صاحب المزرعة!

الكثير من الوقت.. وكل مالي، صدقني لم يبقَ لديّ شيء، حتى لو قتلتك.. فلا شيء أعودُ إليه، لا شيء.

اقترب العامل منه ومسح على كتفه وسأله:

- سأحضر لك السكين حالًا لو كان قتلك لي سيريحك، لكنك ستتعذب فوق العذاب عذابًا.

كانت عينا الإمام محمَّرتان من البكاء، ممتلئتان بالألم، فأضاف العامل:

- لا تعود، تقول لم يبقَ لك شيء؛ فلمَ تعود؟، ابقَ هنا ما تحب، ساعدني لأدمر أرض الحشيش، ساعدني لنصلح أهل هذه القرية، ابقَ على أي حال، هنا كل شيء يعود للحياة.. حتى أنت ستعود.

قام الإمام من مكانهِ ونفض عنه ترابًا علق به، قال بحزم مشوب بالخلخلة:

- مستحيل أن أبقى بأرضٍ تسببت في قتل ابني.

قاطعه العامل:

- لكن...

هاهُنا قاطعهما الشاب بائع الذرة، وقد أتى بخمسة من الذرة الساخنة صاعدًا بهم السلم وهو يهتف:

- يا شيخ.. يا شيخ، أحضرت لكم ذرة ساخنة.

كان صوته مقاطعًا ومنهيًا لكل شيء، وقف الفتى أمامهما ولما وقعت عيناه عليهما صرخ مفزوعًا:

- ماذا حدث؟؟!

فضحك العامل من قوله وهتف:

- موعظة الإمام أبكته هو وأنا الذي يلقيها عليه.

باندهاش نظر له الإمام، والشاب يقترب منه ويقول:

- بموعظةٍ أو بدون.. له كل الآذان والقلوب.

سأل العامل باهتمام:

- أخبرني ما الذي أتى بك يا فتى؟

احمر وجه الفتى وهو يجيب:

- كنتُ سأحضر صلاة الفجر.

فسأله من جديد:

- ولماذا تفعل وأنت لا تصلي أصلًا؟!

سكت الفتى خجلًا؛ فحثه العامل على الإجابة، فقال:

- لأن الإمام قال إنه سيصلي الفجر هنا.

نظر ثلاثتهم لبعضٍ، ابتسم واحد.. فابتسم الثاني، وسأل الثالث:

- ألن ترحل يا إمام؟

فردَّ عليه بامتنان:

- لا، وربُّـنا الـجَبَّار.

***

تمت